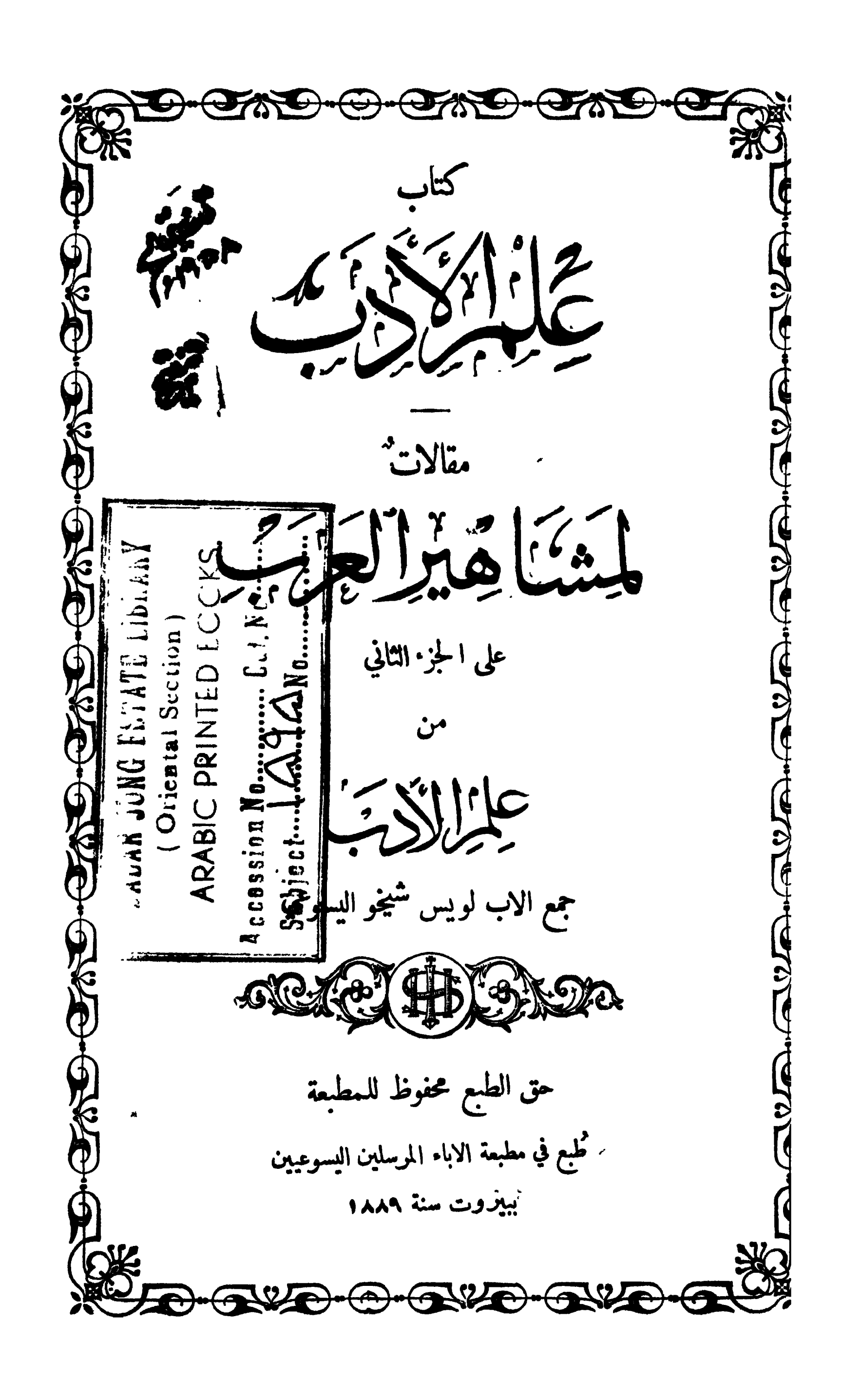


كتاب

علم الأدب

مقالاتٌ

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

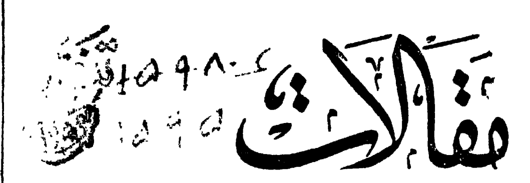
من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩



لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

أَلْقِسْمُ ٱلأَوَّلُ

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال

(عن كليَّات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخِطَابَةُ فِي ٱللُّغَةِ كَٱلْخِطَابِ وَهِيَ ٱلْمُكَالَمَةُ اوِ ٱللَّفْظُ ٱلْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ ٱلْمُوَجَّهِ نَحْوَ ٱلْغَيْرِ لِلْإِفْهَامِ . وَعِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْخِطَابَةُ هِيَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ ٱلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ انْ

يُسْتَعْمَلَ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالَاتِ. وَلَمَّا ظَهَرَ ارِسْطُو فِي يُونَانَ وَهَذَّبَ مَبَاحِثَ ٱلْمَنْطِقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ اوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا جَعَلَ ٱلْخَطَابَةَ احَدَ اقْسَامِهِ ٱلثَّمَانِيَةِ. وَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ ارْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْمَقُولَاتِ وَٱلْعِبَارَةِ وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْبُرْهَانِ وَارْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْجَدَلِ وَٱلسَّفْسَطَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى انْحَاءٍ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَهُوَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْارْبَعَةُ ٱلْأُولَى. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنَّ وَهٰذَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْأَرْبَعَةُ ٱلْأُخْرَى. وَفِيهَا تَدْخُلُ ٱلْخَطَابَةُ. وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ. وَلِٱبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ كُلَّهَا. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي كُتُبٍ خَمْسَةٍ ٱلْبُرْهَانِ وَٱلْجَدَلِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلسَّفْسَطَةِ وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَاغْفَلُوهَا كَانْ لَمْ تَكُنْ هِيَ ٱلْمُهِمَّ ٱلْمُعْتَمَدَ فِي ٱلْفَنِّ. وَامَّا ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ ٱلْمَقَايِيسِ ٱلْخَطَابِيَّةِ ٱلْبَلَاغِيَّةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي مُخَاطَبَاتِ ٱلْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْمُشَاوَرَاتِ وَٱلْمُخَاصَمَاتِ فِي ٱلْمُشَاجَرَاتِ اوِ ٱلْمَدْحِ اوِ ٱلذَّمِّ او ٱلْحِيَلِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلِٱسْتِعْطَافِ وَٱلِٱسْتِمَالَةِ وَٱلْإِغْرَاءِ وَتَصْغِيرِ ٱلْأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ ٱلْمَعَاذِيرِ وَٱلْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١). وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأُبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبرهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي انْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَندَسَةُ اِنَّمَا تُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْاِقْنَاعِ فِي ٱلْاَعْظَامِ وَٱلْاَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْاَجْسَامِ . وَامَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْاِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ فِي ايِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَايِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ اِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) اِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ انَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ اِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْاِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَالْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ اِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْاَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ اِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ وَيُوجَدُ اسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ اَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْاَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ . وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ انَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا اَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ انَّ هٰذَيْنِ (اَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَاَى مَنْ رَاَى اَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ اِنِ ٱسْتَعْمَلَ اَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ اَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا اَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ اَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ اِمَّا اَنْ يُثْبِتَ اَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ اَعْنِي اَنَّهُ كَانَ اَوْ لَمْ يَكُنْ . وَذٰلِكَ اِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ اَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ اَوْ يَسِيرٌ وَاَنَّهُ عَدْلٌ اَوْ جَوْرٌ . وَاِمَّا اَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ اِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَاَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ اَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ اَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ اَوِ ٱلْبِغْضَةِ اِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ . وَامَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي انَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ اوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيسَ يُوجِبُ انَّ ٱلْأَمرَ كَانَ اوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ اِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ اِلَى انْ يَقُولُوا اِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى اوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ انْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ اوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ انْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ انَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ اوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ انَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ اوْ لَمْ يُوجَدْ اِلَى ٱلْحُكَّامِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ اِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) انَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ انْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ انَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ اِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَاكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ . (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى انَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ اوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ اِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ انْ يُفَوَّضَ اِلَى ٱلْحُكَّامِ انَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ اوْ جَوْرٌ نَافِعٌ اوْ ضَارٌّ بَلْ اِنَّمَا يُفَوَّضُ اِلَيْهِمْ انَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ اوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ امْرٌ لَا يُمْكِنُ انْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحدَاهُمَا انْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وذَلِكَ انَّهُمْ بِٱلطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ. وَذَلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي ايِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي انْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ اعْتِقَادُهَا. وَذَلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهَذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بِٱلْمَحْمُودَاتِ . وَهٰذِهِ ٱلْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فِيهَا صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ. وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا ٱلْإِقْنَاعُ فِي ٱلْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلْقِيَاسِ ٱلْجَدَلِيِّ . وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي ٱلْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُثْبِتُ ٱلشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي ٱلضِّدِّ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ . فَهَاتَانِ ٱلْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي ٱلْقُدْرَةِ ٱلَّتِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى ٱلْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِٱلطَّبْعِ وَعَلَى ٱلسَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ ٱسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي ٱلْآخَرِ بَلِ ٱلْاسْتِعْدَادُ ٱلْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى ٱلسَّوَاءِ . فَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ ٱسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ ٱلْإِقْنَاعِ عَلَى ٱلسَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَٱلْجَدَلِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ . . . فَقَدِ ٱسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى ٱلسَّوَاءِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا . وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذهِ ٱلصِّنَاعَةِ أنْ تُقنِعَ ولَا بُدَّ . أعني أنّهُ لَيس يتبعُ فعلَهـا ٱلإقنَاعُ ضرُورةً كما يتبعُ فعلَ ٱلنجّارِ وُجودُ ٱلكرسِيِّ ضرورةً إذا لم يكُن هُنالكَ عائقٌ مِنْ خارجٍ. بل عَمَلُها هو أنْ تُعرِّف جميعَ ٱلمُقنِعاتِ في ٱلشّيءِ وتأتِيَ بها في ذٰلكَ ٱلشّيءِ وإنْ لم يقعْ إقناعٌ . وٱلحالُ فيها في هٰذا ٱلمعنى كٱلحالِ في صِناعاتٍ كثيرةٍ مثلِ صناعةِ ٱلطّبِّ فإنّهُ ليسَ فعلُها ٱلإبراءَ ولا بُدَّ . بلْ إنّما فعلُها أنْ تبلغَ مِنْ ذٰلكَ غايةَ ٱلشّيءِ ٱلممكنِ فعلُهُ في ذٰلكَ ٱلشّيءِ ٱلمقصودِ بٱلإبراءِ . ولِذٰلكَ قدْ يشارِكُ في أفعالِ هٰذهِ ٱلصّنائعِ مَنْ ليسَ مِنْ أهلِها مثلَ أنْ يُبرِئَ مَنْ ليسَ بطبيبٍ ويُقنِعَ مَنْ ليسَ بخطيبٍ لٰكنَّ ٱلفعلَ ٱلحقيقيَّ إنّما هوَ لِصاحبِ ٱلصّناعةِ . وذٰلكَ أنَّ ٱلغايةَ تتبعُ فعلَ هٰذا على ٱلأكثرِ وذٰلكَ على ٱلأقلِّ . وكما أنَّ في ٱلجدلِ ما هوَ قياسٌ وما يُظَنُّ بهِ أنّهُ قياسٌ وليسَ بقياسٍ وهوَ ٱلقياسُ ٱلسّوفسطائيُّ كذٰلكَ في ٱلأقاويلِ ٱلمقنعةِ ٱلمستعملةِ في هٰذهِ ٱلصّناعةِ ما هوَ مُقنِعٌ وما يُظَنُّ بهِ أنّهُ مُقنِعٌ مِن غيرِ أنْ يكونَ كذٰلكَ. لٰكنْ لمّا كانَ ٱلسّوفسطائيُّ ليسَ إنّما يكونُ سوفسطائيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلقوّةِ وٱلملكةِ ٱلّتي بها يفعلُ ٱلأقاويلَ ٱلسّوفسطائيّةَ بلْ إنّما هوَ سوفسطائيٌّ مِنْ قِبَلِ ما يقصدُهُ بتلكَ ٱلأقاويلِ مِنَ ٱلكرامةِ وٱلخيراتِ ٱلخارجةِ وذٰلكَ لإيهامِهِ أنّهُ حكيمٌ وكانَ ٱلجدليُّ إنّما هوَ جدليٌّ بٱلملكةِ ٱلحاصلةِ لهُ عنِ ٱلصّناعةِ فبٱلواجبِ لمْ تكنِ ٱلأقاويلُ ٱلسّوفسطائيّةُ جزءًا مِنْ صناعةِ ٱلجدلِ أعني ٱلّتي يُظَنُّ بها أنّها مقاييسُ جدليّةٌ مِنْ غيرِ أنْ تكونَ جدليّةً

اِذَا ٱسْتَعْمَلَتْ نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْغَايَـةِ . وَامَّا اِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِمْتِحَانِ فَهِيَ جزْءٌ مِنْهَـا . وَامَّا ٱلْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ اَجْلِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مِثْـلَ ٱلْـكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَيْرَاتِ اَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَـكَةِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَـاعَةِ قَدْ يَـكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ ٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . وَاِنَّمَـا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِقْنَاعُهُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ اَوِ ٱلْإِنْفِعَالُ فَاِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ اَنْ يَـكُونَ حُصُولُهُ عَنْ اَقَاوِيلَ هِيَ مُقْنِعَةٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ اَوْ عَنْ اَقَاوِيلَ يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ . فَاِنْ كَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَوِ ٱلْإِنْفِعَالُ خَيْرًا مَا لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَـةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ دَاخِلَةً فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ اِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ ٱلسَّفْسَطَةِ. وَاِنْ كَانَ مَقْصَدُ ٱلْخَطِيبِ خَيْرًا يَنَالُهُ مِنَ ٱلْخَـيْرَاتِ ٱلَّتِي يَقْصِدُهَا ٱلسُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ وَلَيْسَ بِمُقْنِعٍ مِنْ جِهَـةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِذْ قَدْ يُشَارِكُ ٱلْخَطِيبُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِـهِ . فَلِذٰلِكَ قَدْ تَدْخُلُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَـةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ أَنْحَاءِ ٱلبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صَنْفَي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ. وَأَكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِاعْتِذَارِ وسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ. وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ. فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِاتِّفَاقِ. وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ. وَهٰذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ. وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا أَنْ تُثْبَتَ أَجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين اختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ أَبو ٱلْأَشعثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ ٱلْهِنديّ أَيَّامَ ٱجْتلَبَ يَحيَى ٱبْنُ خَالِدٍ أَطِبَّاءَ ٱلْهِندِ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ عِندَ أَهلِ ٱلْهِندِ. قَالَ بَهْلَةُ: عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنَّنِي لَا أُحسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ أُعَالِجْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فَأَثِقَ مِنْ نَفسِي بِٱلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا. (قَالَ أَبو ٱلْأَشعثِ) فَتَلَقَّيتُ تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةَ ٱلْمُتَرْجَمَةَ فَإِذَا فِيهَا: أَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ ٱلْأُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْأُمَّةِ وَٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ ٱلْمَعَانِي كُلَّ ٱلتَّدقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ ٱلْأَلفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهذِيبِ وَلَا يَفعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيلَسُوفًا عَظِيمًا. وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَإِسقَاطَ مُشتَرَكَاتِ ٱلْأَلفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْأَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا على وَجْهِ ٱلِاسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ انَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى انْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ لَهُ طَبْقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُونِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَانْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ ادَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ اوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَانْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَاوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (اوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) اَيْ اوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ نِعَمِ ٱللهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى اكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاعْمَلَ فِكْرَهُ اتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَاِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَاخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا انْ لَا يَتَعَرَّضَ لِٱرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ اَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

---

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف

(٣) ويروى في اقدار

صِناعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى طَبقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطَرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْإِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثَّرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْإِرْتَاجِ

وَٱلإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا اَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ اوّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَانْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ اَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمْ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ اَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي ... بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلِاعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلِارْتِتَاجِ مَا اَخْبَرَنَا اَبُو اَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (امَّا بَعْدُ) امْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : امَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيُفَلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلإِفْحَامِ كَٱلإِشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . اَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ اعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ اغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا احْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا ٱمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مَقَاوِمِنَا هٰذَا مَقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ ايَّامِنَا ايَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى انْطَقُ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّسهيلَ وَٱلجزالة وَٱلحلاوة ولو كانَ فِي ٱلارض ناطق يستغني عن ٱلاشارة لكانه

وقوله: (مُتخيّر ٱلالفاظ) فلانَ مدار ٱلبلاغة على تخيّر ٱللفظ وتخيّره اصعب من جمعه وتأليفه. وقوله: (ويكون في قوله فضل ٱلتصرف في كل طبقة) وهو ان يكون صانع ٱلكلام قادرًا على جميع ضروبه متمكنا من جميع فنونه لا يعتاص عليه قسم من اقسامه فان كان شاعرًا تصرف في وجوه ٱلشعر مديحه وهجائه ومراثيه وصفاته ومفاخره وغير ذلك من اصنافه. ولاختلاف قوى ٱلناس في ٱلشعر وفنونه ما قيل: كان ٱمرؤ ٱلقيس اشعر ٱلناس اذا ركب وٱلنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب وٱلاعشى اذا طرب. وكذلك ٱلكاتب ربما تقدم في ضرب من ٱلكتابة وتأخر في غيره وسهل عليه نوع منها وعسر نوع آخر واخبر احمد بن يوسف قال: امرني ٱلمأمون ان اكتب الى ٱلنواحي في ٱلاستكثار من ٱلقناديل في ٱلمساجد. فبتُّ لا ادري كيف احتذي فاتاني آتٍ في منامي فقال: قل فان في ذلك عمارة للمساجد وانسا للسابلة واضاءة للمتهجدين ونفيا لمكامن ٱلريب وتنزيها لبيوت ٱلله جلّ وعزّ من وحشة ٱلظلم. فٱنتبهت وقد ٱنفتح لي ما اريد فابتدأت بهذا واتممت عليه. وٱلمقدَّم في صنعة ٱلكلام هو ٱلمستولي عليه من جميع جهاته ٱلمتمكن من جميع انواعه وبهذا فضّلوا جريرا على ٱلفرزدق وقالوا: كان له في ٱلشعر ضروب لا يعرفها ٱلفرزدق. وسُئل

بَعْضُهُمْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ اَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَاَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ اَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ اَيْ يَأْتِيَ مَرَّةً بِٱلْجَزْلِ وَاُخْرَى بِٱلسَّهْلِ فَيَلِينُ اِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ اِذَا اَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَاَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ ٱلْاُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْاُمَّةِ وَلَا ٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ) لِاَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ. وَقَدْ اَحْسَنَ ٱلَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ ٱلرَّأْيِ وَقِلَّةُ ٱلْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ ٱلسُّوقِيَّ وَٱلْمَمْلُوكَ ٱلْاَعْجَمِيَّ بِٱلْفَاظِ اَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي اَهْلِ ٱلسَّرَاةِ. كَاَبِي عَلْقَمَةَ اِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ لِقَصَبِ ٱلْمَلَازِمِ وَاَرْهِفْ ظُبَاتِ ٱلْمَشَارِطِ وَاَمِرَّ ٱلْمَسْحَ وَٱسْحَلِ ٱلرَّشْحَ وَخَفِّفِ ٱلْوَطْءَ وَعَجِّلِ ٱلنَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ ٱلْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِٱلْحُرُوبِ. وَاَخْبَرَ اَبُو ٱلْمُغَازِلِ ٱلضَّبِّيُّ عَنْ اَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِٱلْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ اِلَّا بِٱلْغَرِيبِ فَخَرَجَ اِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَاَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْاَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا ٱلنِّصَاحِ وَذَاتِ ٱلسَّمِّ ٱلطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَاَيْتَ ٱلْخَيْفَانَةَ ٱلْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا ٱلْخَاسِنُ ٱلْمُسَرْهَفُ (١) كَانَّ

---

(١) ويروى: الخالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلقَمرُ ٱلاَزهَرُ يُنِيرُ فِي حُضرهِ كَٱلخُلَّبِ ٱلاَجرَدِ (١) . فَقَالَ ٱلخَيَّاطُ اَطلُبهَا فِي بَرّ لَخَا (٢) . فقَالَ : وَيلكَ وَمَا تَقُولُ فَتَجَكَ ٱللهُ فَمَا اَعلَمُ رَطَانَتَكَ . فقَالَ : لَعَنَ ٱللهُ اَبغَضنَا لَفظًا وَاَخطَانَا مَنطِقًا

وَقَولُهُ : (وَلَا يُدقِّقَ ٱلمَعَانِي كُلَّ ٱلتَّدقِيقِ) قَالَ اَبو هِلَالٍ : لِاَنَّ ٱلغَايَةَ فِي تَدقِيقِ ٱلمَعنَى سَبِيلٌ اِلَى تَعمِيَتِهِ وَتَعمِيَةُ ٱلمَعنَى تُكنَةٌ اِلَّا اِذَا اُرِيدَ بِهِ ٱلاِلغَازُ وَكَانَ فِي تَعمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثلُ اثبَاتِ (٣) ٱلمَعَانِي وَمَا يَجرِي مَعهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱستَعمَلُوهَا وَكَنَوا بِهَا عَنِ ٱلمُرَادِ لِبَعضِ ٱلغَرَضِ . فَاَمَّا مَنْ اَرَادَ ٱلاِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ اَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَاَتَى بِاِغلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجزِهِ فِي ٱلاِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلاِفصَاحِ

وَقَولُهُ : (وَلَا يُنَقِّحَ ٱلاَلفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنقِيحِ) فَتَنقِيحُ ٱللَّفظِ اَنْ يُبنَى مِنهُ بِنَاءٌ لَا يَكثُرُ فِي ٱلاِستِعمَالِ كَمَا قَالَ بَعضُهُمْ لِبَعضِ ٱلوُزَرَاءِ : اَحسَنَ ٱللهُ اِبَانَتَكَ . فَقَالَ لَهُ ٱلوَزِيرُ : عَجَّلَ ٱللهُ اِمَاتَتَكَ . وَيَدخُلُ فِي تَنقِيحِ ٱللَّفظِ ٱستِعمَالُ وَحشِيِّهِ وَتَركُ سَلِسِهِ . وَقَدْ اَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيرٍ قَولَهُ :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً ... بِنَهكَةِ ذِي ٱلقُربَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱستَبشَعُوا (ٱلحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلخُلُقِ وَقَالُوا : لَيسَ فِي لَفظِ زُهَيرٍ اَنكَرُ مِنهُ . قَالَ اَبو عُثمَانَ : رَاَيتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلكَلَامَ فَاِنْ كَانُوا اِنَّمَا رَوَوهُ وَدَوَّنُوهُ لِاَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخلّب الاخرز (٢) ويروى : في تمر بلخ
(٣) وفي رواية : ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا.

وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَغِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرّد عنّا

تَعَوَّدَ حذفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلفاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْإِسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِيَ وَٱلْأَلفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنْ ٱسْتَطْرَفَ شَيْئًا مِنْهَا نَنظرَ فِيهِ نَظَرًا غَيْرَ كَامِلٍ أَوْ أَخَذَ مِنْ أَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ أَطْرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنْقَهْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنْفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلْعَامِّيَّ إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ ٱلْعِلْيَةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَنْتَقِلُونَ ٱلْبَارِحَةَ (يَعْنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَّالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (أَيْشْ كَانَ نَقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَتِهِ. فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ إلخ) هُوَ أَنْ يُسْقِطَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلْكَلَامُ مَعَ إِسْقَاطِهِ تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلْعَبْدِيِّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ فَقَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئَ. ثُمَّ قَالَ: أَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخْطِئَ وَلَا تُبْطِئَ). فَأَلْقَى ٱللَّفْظَتَيْنِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي أَبْقَى غِنًى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَامَّا اِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْالفَاظِ فَائدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْالفَاظِ) فَهُوَ انْ يُرِيدَ ٱلْابَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِالْالفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ اُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ اَيَّهَا ارَادَ . وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ اِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ اَعْلَمُ اَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ   يَوْمُ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلْاشْتِرَاكِ فِي هٰذَا اَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي اِلَى ايِّ شَيْءٍ اَشَارَ مِنْ اَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ) ا اَرَادَ اَنْ يَبْكِيَ اِذَا رَحَلُوا اَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ اَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ اَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ اَوْ يَدْفَعَ اِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ اوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ اَحِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَاَحْوَجَ اِلَى اَنْ يَسْاَلَهُ عَمَّا ارَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَاَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ) . لِاَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَاَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ اَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِحُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْاَزْدِيِّ

فَاِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ   لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا ارَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيْتَ) اَ خَيْرًا ارَادَ امْ شَرًّا اِلَّا

انْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَامَّا فِي نَفْسِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ انْ اُودِعَ ٱلثَّرَى ... بِهِ مَا يُقَالُ فِي ٱلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّحَابِ اذَا ٱنْقَلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ ٱنْقِلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ ٱنْقِشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ ٱلسَّامِعُ . عَلَى انَّ ٱلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : إِنَّ اكْثَرَ ٱلْعَادَةِ فِي ٱلسَّحَابِ انْ يُحْمَدَ اثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ ارِدْ عَيْبَ ابِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَانَّمَا ارَدْتُ ٱلْاخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ ٱلْاشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ الَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ اوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ ابِي نُوَاسٍ :

وَخَبَّ مَا يَخْبُبْنَ مِنْ آخِرٍ ... مِنْهُ وَٱلطَّابِنِ امْهَارُ (١)

ٱلْامْهَارُ هَاهُنَا جَمْعُ مُهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَٱلْمَصَادِرُ لَا تُجْتَمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ انَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَبَ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِٱلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِٱلْالْمَاسِ . ارَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَاصَابَ ٱلسَّجْعَ وَاخْطَأَ ٱلْمَعْنَى . وَامَّا مَا بِنِيَّتِهِمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَالِي مِنَ ٱلْاشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِاخٍ لَهُ ارَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس :

وخبز ما يخبز من بعده ... منهُ والطابن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ أَخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَيَّرْتُ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى ٱلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ أَخْلَاقِ ٱلْمُعَاشِرِينَ وَلِحِلْمِي بِكَامِنِ ٱلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْعَالَمِينَ. وَٱلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا أُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ ٱلتَّجَاوُزِ وَأَسْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا أَذْيَالَ ٱلتَّغَاضِي. وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ ٱعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ . فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَٱنْقَطَعَتْ أَسْبَابُ أَمَلِي مِنْكَ وَرَأَيْتُ ٱلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى ٱلتَّعَهُّدِ بِٱلدَّوَاءِ إِلَّا فَسَادًا وَٱلْخَرْقَ عَلَى ٱلتَّرْقِيعِ إِلَّا ٱتِّسَاعًا قَدَّمْتُ ٱلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى ٱلرَّجَاءِ فِيكَ فَٱحْتَسَبْتُ أَيَّامِي ٱلسَّالِفَةَ فِي ٱسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ : (وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا) أَيْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا لِلَّفْظِ بِقَدْرِ ٱلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِص عَنْهُ فَكَانَ كَٱلطَّبَقِ عَلَى ٱلْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ :(وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي ٱلْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ : وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا . وَمِثَالُ ٱلْفَاضِلِ مِنَ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ :

وَٱسْقِ ٱلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَٱعْلَمْ لَهُ ... بِٱلْغَيْبِ أَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا
وَٱجْزِ ٱلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى أَنْ لَوْ لَهُ ... يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ : اِجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ . وَكَانَ ٱلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ أَبِي ٱلْعِيَالِ ٱلْهُذَلِيِّ .

ذَكَرْتُ اخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ
فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ إِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدًّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ مُفْتَقِرًا إِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْأَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى إِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ ٱلْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ ٱلْأَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْأَنْصَافَ وَٱلْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

أَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا أَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِٱلْأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْإِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَأَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: (أَحَدُهَا) إِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا أَهْلًا أَنْ يُصَدَّقَ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَأَعْضَائِهِ شَأْنُهَا أَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي أَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ أَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دونَ قولٍ يتكلّفونهُ في الشيء. وانما يكونُ ذلك في الأمورِ الظاهرةِ للحسّ التي يزعمون انهم احسّوها، مثلُ قولهم: انّهُ شرب او قتل. فامّا اخبارُهُم عن الامورِ الخفيّةِ عندَ الحسّ وهي التي يُظنّ انّهُ خفي عنهم ما احسّوا من ذلك او وهموا فيه اذا كان ذلك الشيء ممكنًا ان يهم فيه الحسّ فليس يُصدّقون في الاشياء التي يدّعونها في امثالِ هذه الاشياء دونَ ان يستعملوا في تثبيتِ ذلك الشيء القول. وعليه قد اخطأ الذين ذكرنا انهم تكلّموا في الخطابةِ فذهبوا الى انّ الفضيلةَ والاناةَ انما هي نافعةٌ في بابِ الانفعالِ فقط. واما (الصنفُ الثاني منَ التصديقاتِ) فهوَ الصنفُ الذي يكونُ بانْ يكسبَ السامعُ بالقولِ انفعالا ما يُوجبُ لهُ التصديقَ بالشيءِ الذي فيهِ القول. فانّهُ ليسَ تصديقُنا بالشيءِ واقرارُنا بهِ ونحنُ في حالِ الفرحِ او الحُزنِ تصديقًا واحدًا. وكذلكَ اذا كنّا في حالِ السُخطِ على الشيء او حالِ الرِضا عنهُ. وهذهِ هي الاشياءُ التي تكلّمَ فيها اولائكَ الذينَ ذكرنا انّهم تكلّموا في هذهِ الصناعةِ. واما (الصنفُ الثالثُ منْ هذهِ التصديقاتِ) فهوَ تثبيتُ الشيءِ بالكلامِ المُقنعِ او ما يُظنّ بهِ انّهُ مُقنعٌ وذلكَ في الأمورِ الجزئيّةِ التي تُقنعُ فيها هذهِ الصناعةُ. واذا كانتِ التصديقاتُ انّما تكونُ في هذهِ الصناعةِ بهذهِ الوجوهِ فهوَ بيّنٌ انّ الذي يقدرُ انْ يُقنعَ الاقناعَ المُمكنَ في كلّ واحدٍ منَ الاشياءِ انّما هوَ الذي يكونُ عالمًا بثلاثةِ اشياءَ: (اوّلها) معرفةُ الاقاويلِ المُقنعةِ. (وثانيها)

مَعْرِفَةُ ٱلْاَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِاَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ اَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَاَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ اَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ . وَاِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي اَجْزَائِهَا اِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي اَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي اَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ اِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطليس كل من تكلموا في الخطابة . وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

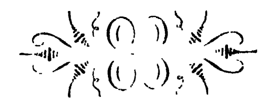
(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجلِ اَنَّهُ مَعلُومٌ اَنَّ ٱلاَشيَاءَ ٱلمَنسُوبَةَ اِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِنَّمَا يُقصَدُ بِهَا ٱلتَّصدِيقُ وَٱلاِعتِرَافُ مِنَ ٱلمُخَاطِبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ اِلَّا بتَثبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِندَ ٱلمُعتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنَّا اِنَّمَا نَعتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَاَينَا اَنَّهُ قَد ثَبَتَ عِندَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثبُتُ بِهِ ٱلاَشيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اَصلُ ٱلتَّصدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلاُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحوَ مِنَ ٱلتَّصدِيقِ اَعنِي ٱلتَّصدِيقَ ٱلبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوعٌ مِنَ ٱلقِيَاسِ وَمَعرِفَةُ ٱلقِيَاسِ جُزْءٌ مِن صِنَاعَةِ ٱلمَنطِقِ فَقَد يَجِبُ اَن يَكُونَ صَاحِبُ ٱلمَنطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِمَّا فِي كُلِّهَا وَاِمَّا فِي ٱلاَجزَاءِ مِنهَا. وَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَعرِفُ ٱلقِيَاسَ مِن كَمْ شَيْءٍ يَلتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اَقدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّن يَعرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَط دُونَ اَن

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

تعرفَ ٱلقِيَاسَ ٱلَّذي هُوَ جنسُهُ. وَٱلَّذِي يَزِيدُ عَلَى هٰذَا فَيَعْلَمُ لِمَاذَا تُعمَلُ ٱلضَّمَائِرُ وَٱلْفُصُولُ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلضَّمِيرِ وَبَيْنَ سَائِرِ ٱلْمَقَايِيسِ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلأُخَرِ فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ ذَيْنِكَ. وَٱلْمَعْرِفَةُ بِهٰذَا كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ. فَإِنَّ لِلْقُوَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِعَيْنِهَا أَعْنِي لِلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِعَيْنِهَا أَنْ تَعَرَّفَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ حَقٌّ وَٱلَّذِي هُوَ شَبِيهٌ بِٱلْحَقِّ وَٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَقًّا فَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِّ وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّاسَ مُتَهَيِّئُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ كُلَّ ٱلتَّهَيِئَةِ نَحْوَ ٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْحَقِّ نَفْسِهِ. وَهُمْ أَكْثَرُ ذٰلِكَ يَأْتُمُّونَهُ وَيَفْعَلُونَ عَنْهُ. وَٱلْمَحْمُودَاتُ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْهَا ٱلضَّمَائِرُ شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِّ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا نَائِبَةٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنَابَ ٱلْحَقِّ. وَٱلشَّبِيهُ بِٱلْحَقِّ قَدْ يَدْخُلُ فِي عِلْمِ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَنْطِقِ. وَإِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ هٰكَذَا فَقَدِ ٱسْتَبَانَ أَنَّ قُصُورَ هٰؤُلَاءِ فِيمَا تَكَلَّمُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ ٱلْخَطَابَةِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِٱلْمَنْطِقِ وَأَنَّ سَائِرَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي ٱلْخَطَابَةِ وَمَنْ يَسْتَعْمِلُ ٱلأَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَقَدَّمُوا فَيَعْرِفُوا هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءَ ٱلَّتِي هِيَ عَمُودُ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ فِي أَشْيَاءَ تَجْرِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ مَجْرَى ٱلتَّزْيِينِ وَٱلتَّنْمِيقِ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ظَاهِرِ ٱلشَّيْءِ وَصَفْحَتِهِ لَا فِي ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مِنْهَا مَنْزِلَةَ مَا بِهِ قِوَامُ ٱلشَّيْءِ وَوُجُودُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُظَنُّ بِمَا فَعَلُوا مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلإِقْنَاعِيَّةِ وَجَرَوْا فِي ذٰلِكَ عَلَى طَرِيقِ ٱلصَّوَابِ وَٱلْعَدْلِ

تعمل منها المقاييس في صناعة واحدة من هذه الثلاث التي ذكرنا بل في جميعها اذ كانت لا تستعمل نفسها وانما تستعمل قوتها. واما الانواع فهي المقدمات الخاصة بصناعة صناعة من الصنائع الجزئية مثل المقدمات التي تعمل منها المقاييس في الامور الطبيعية فانها لا تعمل منها المقاييس في الامور الخلقية ولا التي في الامور الخلقية تعمل منها المقاييس في الامور الطبيعية. واذا كان الامر هكذا فاذن المواضع لا يؤلف منها قياس في صناعة مخصوصة اذ ما يتصور منها هو عام لاكثر من صناعة واحدة. واما الانواع فهي التي تؤلف منها المقاييس التي تلتئم منها الصناعة التي تلك الانواع مخصوصة بها. لكن الانواع التي نحن عازمون في هذا الكتاب على ذكرها ليست هي مقدمات يقينية لانه لو كان ذلك كذلك لكانت المقاييس الخطبية مقاييس يقينية ولم تكن مقاييس جدلية فضلا عن خطبية. والضمائر المعمولة في هذه الصناعة اكثر ذلك انما تؤلف من هذه الانواع ما كان منها خاصا بجنس جنس من اجناس الخطابة الثلاثة وما كان منها عاما للاجناس الثلاثة التي تحدد بعد



البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذَلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَاَلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِالْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ اَوْ بِالْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ: إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ. وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمَيُّزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ. فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ. وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ. فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ: (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول: (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفتهِ وسبب لها فلا بد ان تتقدمها. (فيكون غيرهُ) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله. (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك: الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة. (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك: الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة. (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التميز). (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ اَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ اِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا. اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَاِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا. وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَاِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَاِلَّا فَنَاقِصٌ. وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَاِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَاِلَّا فَلَا. وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَاِلَّا فَلَا.

اي لولا كونهُ مساوياً (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونـه اعمَّ مطلقاً او من وجهٍ (فلم يكن مانعاً) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطرداً) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضاً. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص امَّا مطلقاً او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكساً) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق مما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التميز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها... (ولا بد فيهِ) اي في المعرِّف (من مميز مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًّا سمي) المعرِّف (حدًّا) (والا سمي رسماً. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين واماَّ رسم تام مركب من الخاصـة والجنس القريب. (والا فناقص) امَّا حد ناقص سواء كان بالفصـل وحده او مع الجنس البعيد او العرَض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واماَّ رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًّا وناقصاً (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورهـا

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص . وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفَ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك : العلم كالنور والجهل كالظلمة . (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال . (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها . (والثاني التعريف اللفظي . وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك : الغضنفر الاسد . وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل . انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ . فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرّف الحقيقي واقسامه الاربعة التي ذكرت . وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ . واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين : احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم . فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا . وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا . والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا . . .

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيفسّرَ بِلَفظٍ اَوضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسيّة

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِندَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شِرْكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ إِلَى اَجزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ إِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخر الجنس فيه كان حدًّا ناقصاً فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيرهِ. (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه بصدد الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

اَلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنْ

ٱلْأَنواعِ. فيَجْعَلُهُ جِنْسًا تعظيمًا لهُ وتفخيمًا لِأَمرِهِ بعدَ انْ يحصرَ جميعَ اقسامِهِ. وٱلْمرادُ عِنْدَهُمْ بِٱلنوعِ اعمُّ مِنْ انْ يكونَ صادِقًا على متعَدِّدٍ ذِهْنًا كما هوَ ٱلنوعُ ٱلمعهودُ عِنْدَ عُلَماءِ ٱلْمنطقِ اوْ لا يَصْدقُ الَّا على فَرْدٍ واحِدٍ كَٱلْجزْئِيِّ ٱلْمعروفِ عِنْدَهُمْ. وٱلْمرادُ بِٱلْكُلِّيِّ ٱلْجنسُ وَهُوَ ما صَدَقَ علَى متعَدِّدٍ ٱخْتلفتْ حقيقَةُ افْرادِهِ. وَمِثالُ ذلكَ عِنْدَهُمْ كَقَوْلِ ٱلْمتنبِّي:

هِيَ ٱلْغرَضُ ٱلْاقصى ورُؤْيتُكَ ٱلْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنيا وَانْتَ ٱلْخلائقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَمْدُوحِهِ فجعلَ مَنْزِلَهُ ٱلَّذي هُوَ جُزْئِيٌّ كُلِّيًا وَهُوَ ٱلدُّنيا وَجَعَلَ ذَاتَهُ ٱلَّتي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ وهِيَ ٱلْخلائقُ. وَامَّا حصرُ اقسامِ ٱلْجُزْئِيِّ فَلِأَنَّ ٱلعالَمَ عِبارَةٌ عَنْ حيوانٍ ونَباتٍ وجَمادٍ. وٱلْمنزِلُ شامِلٌ لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيَّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

ٱلْجِنْسُ فِي ٱللُّغةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ اعمُّ مِنَ ٱلنَّوْعِ. يُقالُ: ٱلْإِنسانُ نوعٌ وٱلْحيوانُ جِنسٌ. ويُرادُ بِهِ عِنْدَ اهلِ ٱلْعربيَّةِ ٱلْماهِيَّةُ. وَكُلُّ مادَلَّ علَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ ما اشْبَهَهُ وَبِٱلنَّظَرِ الى

هٰذا قيلَ اسمُ الجنسِ اسمٌ موضوعٌ للماهيَّةِ من حيثُ هيَ . والجنسُ عبارةٌ عن كلّيٍّ مقولٍ على كثيرينَ مختلفينَ بالأغراضِ دونَ الحقائقِ . وقيلَ ايضاً . الجنسُ هوَ المقولُ على افرادٍ مختلفةٍ من حيثُ المقاصدِ والاحكامِ . والنوعُ كلّيٌّ مقولٌ على افرادٍ متفقةٍ من حيثُ المقاصدِ والاحكامِ مختلفينَ بالعددِ فقط كالانسانِ فانَّهُ مقولٌ على زيدٍ وعمرٍو وبكرٍ في جوابِ ما هوَ . وربَّما أُطلِقَ الجنسُ على الامرِ العامِّ سواءٌ كانَ جنساً عندَ الفلاسفةِ او نوعاً . كالحرِّ والعبدِ مثلاً فهما نوعانِ يندرجانِ في حكمٍ واحدٍ ويشتركانِ في الانسانيَّةِ . ثمَّ انَّ الجنسَ يُقسَمُ الى قريبٍ وبعيدٍ لانَّهُ انْ كانَ الجوابُ عنِ الماهيَّةِ وعنْ جميعِ مشاركاتِها في ذٰلكَ الجنسِ واحداً فهوَ قريبٌ . ويكونُ الجوابُ ذٰلكَ الجنسَ فقط كالحيوانِ بالنسبةِ الى الانسانِ وعنْ جميعِ ما يشاركُهُ في الحيوانيَّةِ كالفرسِ والغنمِ والبقرِ ونحوِها . وانْ كانَ الجوابُ عنها وعنْ جميعِ مشاركاتِها في ذٰلكَ الجنسِ متعدِّداً فهوَ بعيدٌ ويكونُ الجوابُ هوَ غيرُهُ كالجسمِ النامي بالنسبةِ الى الانسانِ فانَّهُ جوابٌ عنِ الانسانِ وعنْ بعضِ مشاركاتِها فيهِ كالنباتاتِ . . والاجناسُ تترتَّبُ متصاعدةً والانواعُ متنازلةً الى انْ تبلغَ الى جنسٍ ليسَ فوقَهُ جنسٌ آخرُ وهوَ الجنسُ العالي والى نوعٍ ليسَ تحتَهُ نوعٌ آخرُ وهوَ الجنسُ المفردُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعلَمْ انَّ ٱلعِلِّيَّةِ وٱلمعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوارِضِ ٱلشامِلَةِ لِلمَوْجُودَاتِ علَى سَبِيلِ ٱلتَّقابُلِ كَٱلإِمكانِ وَٱلوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحْتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ الى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلمُحْتَاجُ اِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعْلِ كَٱلهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلقُوَّةِ كَٱلخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلمَادَّةُ. وَلَهَا اسماءٌ بِٱعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا ٱلصُّوَرُ ٱلمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يَبْتَدِأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاسْطَقِسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِأَجْلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلوُجُودِ. وَٱلاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلِاخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ ٱلمُوجِبِ غَايَةً اَيْضًا تَشْبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةٌ

ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلمعلوليَّةِ. وَيُسمَّى جميعُ ما يحتاجُ اليهِ ٱلشَّيءُ عِلَّةً تامَّةً وهي قَدْ تكونُ عِلَّةً فاعِلِيَّةً اوْ معَ ٱلغايَةِ كما في ٱلبسيطِ. وقَدْ تكونُ مُجتمِعَةً مِنَ ٱلأَربعِ كما في ٱلمركَّبِ... وٱلفرقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وٱلشَّرْطِ أَنَ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فحيثما وُجِدتْ وُجِدَ ٱلحُكمُ وَتأْثيرُها بِٱلذَّاتِ. امَّا ٱلشَّرْطُ فيتوقَّفُ عليهِ تأْثيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لا ذاتُهُ كيبوسةِ ٱلحطَبِ للإحراقِ اِذِ ٱلنَّارُ لا تُؤَثِّرُ في ٱلحطَبِ بِٱلإحراقِ اِلَّا بعدَ انْ يكونَ يابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوَّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَعلَمْ انَّ لِلكلامِ آدابًا اِنْ اَغفلَها ٱلمتكلِّمُ اذهبَ رونقَ كلامِهِ وطمسَ بهجةَ بيانِهِ ولَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ محاسنِ فضلِهِ بمساوئِ ادبِهِ فعدلُوا عن مناقبِهِ بذِكْرِ مثالبِهِ. (فمنْ آدابِهِ) انْ لا يتجاوزَ في مدحٍ ولا يُسرفَ في ذمٍّ وَاِنْ كانتِ ٱلنزاهةُ عنِ ٱلذمِّ كرمًا. وٱلتجاوُزُ في ٱلمدحِ مَلَقًا يصدرُ عنْ مهانةٍ وٱلسَّرفُ في ٱلذمِّ انتقامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ. عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذٰلِكَ. قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَأَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ:

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلْفِعْلُ وَٱلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنَّ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَنِ

ابنُ الحارثِ الهاشميُّ :

تحرَّ من الطُّرقِ اوساطَها وعدِّ عن الموضعِ المشتبهْ
وسمعَكَ صُنْ عن قبيحِ الكلامِ كصونِ اللسانِ عن النطقِ بهِ
فانَّكَ عند استماعِ القبيحِ شريكٌ لقائلهِ فانتبهْ

ومما يجري مجرى فحشِ القولِ وهُجرهِ في وجوبِ اجتنابهِ ولزومِ تنكُّبهِ ما كانَ شنيعَ البديهةِ مستنكَرَ الظاهرِ وان كانَ عقبَ التأمُّلِ سليمًا وبعدَ الكشفِ والرَّويّةِ مستقيمًا كالذي رواهُ الازديُّ عن الصوليِّ لبعضِ المتكلِّفين من الشعراء :

انَّني شيخٌ كبيرُ كافرٌ باللهِ سيري
انت ربّي والهي رازقُ الطفلِ الصغيرِ

يريدُ بقولهِ (كافرٌ) اي لابسٌ لانَّ الكفرَ التغطيةُ. ولذلكَ سُمّيَ الكافرُ باللهِ كافرًا لانَّهُ قد غطَّى نعمةَ اللهِ بمعصيتهِ. وقولهُ : (باللهِ سيري) يُقسِمُ عليها ان تسيرَ. وقولهُ : (انتَ ربّي) يعني ربّي ولدكِ من التربيةِ. والهي رازقُ الطفلِ الصغيرِ كما انَّهُ رازقُ الولدِ الكبيرِ . فانظرْ الى هذا التكلُّفِ الشنيعِ والتعمُّقِ البشيعِ ما اعتاضَ من حيثُ البديهةِ اذا سلِمَ بعدَ الفكرِ والرَّويّةِ الَّا لومًا ان حسُنَ فيهِ الظنُّ او ذمًّا ان قويَ فيهِ الارتيابُ. وقلَّما يكونُ ذلكَ الَّا من خايعٍ بطرٍ او مرتابٍ اشرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ. وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱسْتَرْشِدُوا ٱلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ: ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ ٱلْعَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ إِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ. قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ. وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يُحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّجَارِبِ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ: ٱلْأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْأَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ. وَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ:

وَما كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلٰكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ ... فَحَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذٰلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمَحِّضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَضِفْ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ ... وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ ... بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا ... تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ ... فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِٱلرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ ... فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) انْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ اذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ ابِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يَحْكُمُ ٱلْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ اهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ اسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ اقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللّٰهِ ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ احَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَإِذَا ارَادَ ٱللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ اوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ ابِي طَالِبٍ: ٱلْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ شَاوِرْ. مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَانْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ اخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْأَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْذُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفَلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْأَذَى. وَإِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى ٱلدُّخُولِ فِي أَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْأَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلْأَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ إِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ إِلَّا إِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلْفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ. وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِٱنْتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ اَوِ ٱلتَّلُّ ٱلْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْأَجَلِ. وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ. فَيَصْعَدُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ. فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ. وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ. وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْأَمَانِي. وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي. فَتَشْمَلُهُ شُمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ. وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حُمَيَّةُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْأَفْرَاحِ. وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْأَقْدَاحِ. فَيَنْسِمُ مَدَى ٱلْأَوْقَاتِ. وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ. اِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ. وَمُحْتَفًا بِأَوْهَامِ ٱلْأَعْمَالِ. فَلَا يَنْظُرُ اِلَّا اِلَى ذَاتِهِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِصِفَاتِهِ. هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ. وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ. وَهٰكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ. وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ. وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ. اِلَى اَنْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ. وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) اَمَّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْأَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ. وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْأَمَلِ. حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ. حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْأَمْرِ. فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا. مُمَنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْأَشْيَاءِ. مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَاَهْوَائِهِ. مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ. وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِ. وَتَشُبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ. وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْأَهْجَاسِ. فَيَنْدَفِعُ اِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْأَقْدَارِ وَٱلْأَيَّامِ. وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْأَوْهَامِ. فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ اِلَى اَوْجِ ٱلْأَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ.

وَطَوْرًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيْبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّيْءِ رَغِبَ فِي ٱلْخَلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلْمَطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبَطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحِدْثَانِ. وَمُسْقَطًا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَنْتَثِرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَصْفَعُ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقُدْرَةِ. حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدَّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنُهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْأَمْرَاضِ. فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا. وَمَرْضُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا. فَتَصْمُتُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكُفُّ بَصَرُهُ. وَيَجِفُّ فِكْرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَبْخَلُ حَتَّى بِأَنْفَاسٍ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلْقَاسِ. فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَٱلطَّيْفِ وَٱلْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى ٱلْجَمِيعِ. ضَحِكَ ٱلطِّفْلِ ٱلرَّضِيعِ. امَّا اِذَا ٱلْتَفَتَ اِلَى ٱلْأَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ ٱلْأَيَّامِ. حَنَّ اِلَى ٱلْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ ٱلْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ ٱلْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَٱلْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ. وَٱلْمُسْتَقْبَلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ هَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ ٱلْمَنِيَّةِ. وَتَسْلِبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ ٱلْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ ٱلنِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ ٱلْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ ٱلْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ ٱلْخَطِيبَ اِذَا مَا اَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ اَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ اَحْوَالِهِمْ. قَالَ اَفْلَاطُونُ: لِكُلِّ اَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ ٱلنَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَٱلْتَمِسْ مِنَ ٱلْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَأَجْرِ مَعَ ٱلزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ ٱلْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِيجَازِ وَٱلِٱخْتِصَارِ. عَلَى اَنَّهُ لَا يَمْنَعُ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِٱسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . إِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ . وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدَّمَاتٍ مِنْهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ . وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ . لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَعْظَمَ مَثَلًا وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمًّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ . فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا . وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ . . . وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَاهَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا . ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا . وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ

ٱلنَّاس قُوَّتَيْنِ إِحداهُمَا نَاطِقَةٌ وَٱلأُخرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ ٱلقُوَّةِ ٱلبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ ٱللَّذَاتِ ٱلعَاجِلَةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِثل أَنوَاع ٱلغِذَاءِ وَنِزَاعُ ٱلقُوَّةِ ٱلنُّطْقِيَّةِ نَحْوَ ٱلأُمُورِ ٱلمَحْمُودَةِ ٱلعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُرشِدُ ٱلجُمهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيلِ ٱلفَضَائِلِ أَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَإِنَّهُ مَتَى مَا أَهمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلآخَرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلبَهِيمِيُّ. وَإِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى إِذَا أَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ ٱلنَّصَبِ أَضْعَافَ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهمَلَهُمْ. وَنَقُولُ أَيضًا إِنَّ ٱلخَطِيبَ لَا يَنْبُو فِي جَمِيعِ مُتَصَرَّفَاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى ٱلجُمهُورَ مَائِلًا إِلَى أَمرٍ مَحمُودٍ أَوْ أَمرٍ مَذمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلأَمرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ ٱلسَّامِعِينَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلأَمرِ ٱلمَحمُودِ ٱلَّذِي يَلقَاهُ إِنْ وَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلدَّفْعِ إِلَيهِ وَيُنَبِّهَهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبَ عَلَيهِمِ ٱلتَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ ٱلفُرْصَةَ لِذٰلِكَ. وَإِذَا يَلقَاهُ ٱلأَمرُ ٱلمَذمُومُ فَلْيَجتَهِدْ فِي ٱلتَّحذِيرِ مِنْهُ وَٱلتَّجنِيبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى ٱلِاعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارُّ مِثلِهَا. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلخَطِيبِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ جُلِّهَا وَدَقِّهَا خَيرِهَا وَشَرِّهَا مَوضِعَ ٱلرِّيَاضَةِ لِنَفسِهِ وَإِرْشَادِ ٱلجُمهُورِ. وَإِذَا تَيَقَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْدِمَ عَلَى سِيَاسَةِ ٱلأَحوَالِ بِقَلبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيهِ نَفْعًا يَجِلُّ. وَنَبدَأُ بِتَعَهُّدِ ٱلخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ إِنَّهُ

يجبُ عليهِ انْ يكونَ مُلازماً لِما هُوَ فِي صددهِ مُواظباً على ما فُوّض اليهِ ولَا يخشى ٱلمَلالَ وخصُوصاً مِنَ ٱلمُلوكِ. وانْ يكونَ مُجتهِداً فِي طَلَبِ وُجُوهٍ حِسانٍ لِكُلِّ ما يطلُبُهُ مِنهُمْ اذ لا شَيْءَ مِنَ ٱلأُمور فِي ٱلعالَمِ الَّا ولَهُ وَجهانِ احدُهما جميلٌ وٱلآخرُ قبيحٌ فليطلُبْ لِكُلِّ امرٍ مِنْ امُورِهِ وَجهاً جميلاً يصرِفُهُ اليهِ ويتكلَّفُ لِذكرِهِ بحضرتهِ فإنَّ ٱلخطيبَ ٱلمُفوَّضَ اليهِ تدبيرُ ذلكَ ٱلرئيسِ كالسَّيلِ ٱلمُنحدِرِ مِنَ ٱلرَّبوةِ انْ ارادَ ٱلمرءُ انْ يُواجِهَهُ اهلكَ نفسَهُ وَاتى عليهِ ٱلسَّيلُ فاغرقَهُ. وَإنْ سعى معهُ وعلى جانبيهِ وتلطَّفَ ليصرِفَهُ الى ٱلناحيةِ بانْ يطرحَ فِي بعضِ جوانبِهِ مِقداراً مِنَ ٱلسُّدد ويطرِقَ لَهُ مِنَ ٱلجانبِ ٱلآخرِ لا ينشبُ انْ يصرِفَهُ الى حيثُ شاءَ. فينبغي لَهُ كذلكَ انْ يستعمِلَ معَ ٱلرئيسِ فِي صرفِ وَجهِهِ عمَّا يُريدُ صَرفَهُ عَنْ امرٍ يُريدُ انْ يُجرى معهُ فِيما هُوَ جارٍ نحوَهُ ولا يُواجِهَهُ وانْ كانَ فِي غايةِ ٱلانبساطِ معهُ ولا يُقِرَّ بِما يُلقِي مِنهُ الى ٱلناسِ مِمَّا يُستقبَحُ فسيَّانِ بينَ ٱلخبرِ وٱلإقرارِ.. وينبغي انْ يتلطَّفَ كُلَّ ٱلتلطُّفِ فِي مِثلِ ٱلمنافعِ مِنْ جهةِ ٱلرُّؤساءِ بانْ لا يُلِحَّ فِي ٱلسُّؤالِ ولا يُدِعَهُ ولا يُظهِرَ ٱلطَّمعَ وٱلشَّرهَ مِنْ نفسِهِ ويجتهِدَ فِي انْ يطلُبَ مِنَ ٱلرُّؤساءِ اسبابَ ٱلمنافعِ لا ٱلمنافعَ انفُسَها.. وليجتهِدْ فِي انْ يُظهِرَ فِي كُلِّ ما يقولُ ويفعلُ انَّهُ انَّما يفعلُهُ زِينةً وجمالاً للرئيسِ لا لنفسِهِ وانَّهُ يُريدُ وَجهَ ٱلصَّلاحِ فِي خِلافِ ما يأبيهِ ويذكُرُ لَهُ فِي ٱلوقتِ بعدَ ٱلوقتِ على سبيلِ ٱلحكاياتِ عَنْ غيرِهِ وٱلحِيَلِ ٱللطيفةِ

بعض ما يعرض مما هو فيه. فانه متى ما استعمل هذه الطريق لا ينشب ان يعود الحال برادهِ.. وان يعلم ان للرؤساء هِمماً ينفردون بها عمن سواهم من الناس وهي انهم يعتقدون في جميع من دونهم الاستخدام والاستعباد وفي انفسهم الاصابة في جميع ما يأتون وانما يحدث هذا بهمتهم لكثرة مدح الناس لهم واطرائهم اعمالهم وتصويبهم آراءهم

فهذه قوانين ينتفع باستعمالها الخطيب في معاشر الرؤساء التي ينبغي ان يستعملها المرء مع الاكفاء فسنذكر منها جملاً ونقول ان الاكفاء لا يخلو من ان يكونوا اصدقاء او اعداء او ليسوا باصدقاء ولا اعداء. والاصدقاء صنفان احدهما الاصفياء المخلصون في الصداقة فينبغي للمتكلم ان يديم ملاطفتهم وتعهد اسبابهم واهداء ما يستحسنه وما يتيسر له اليهم في كل وقت. ويجري الحال فيما بينهم وبينه بذلك بغير ان يظهر منه ملالاً او تقصيراً ويجتهد في الاكثار منهم غاية الجهد فان الصديق زين المرء وعضده وعونه وناصره ومذيع فضائله وكاتم هفواته ومخفي زلاته ومهما كان هؤلاء اكثر كانت احوال الخطيب فيما بينهم احسن واقوم. والصنف الآخر اي الاصدقاء في الظاهر عن لا صدق فيما يظهرونه بل بتشبه وتصنع فينبغي للخطيب ان يعاملهم بمداراة ويحسن اليهم ولا يطلعهم على شيء من اسراره وخصوصاً من عيوبه. وليجتهد في استمالتهم والصبر معهم ومعاملتهم بحسب الظاهر

دُونَ أَخْذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ إِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ الْأَصْفِيَاءِ لَهُ . أَمَّا الْأَكْفَاءُ الْأَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ النُّصَحَاءُ الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ أَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى إِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ أَوَّلًا بِأَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ أَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ أَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ أَقَاوِيلِهِمْ فَإِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ إِلَى إِنْفَاذِ الْأَمْرِ . وَمِنْهُمُ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ أُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِإِصْلَاحِ مَا بَيْنَ النَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ يَمْدَحَهُمْ أَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَأَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فَإِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ النَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ الْخَطِيبُ إِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ السُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ أَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْأَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْاِكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْكِبْرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ أَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِأَنَّهُ إِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ أَحَسُّوا مِنْهُ بِضُعْفٍ وَتَوَهَّمُوا أَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرُهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُؤَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرِّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

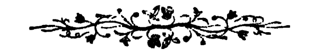
(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ ٱلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ ٱلْإِنْسَانُ أَفْعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِٱجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّرِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلِٱحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلِٱفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلِٱعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِٱجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

إِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ أَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا تَنَبَّهَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ أَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُرْشَدَ إِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ أَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَحِنُّ إِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْإِصْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ إِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ إِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ إِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا إِلَيْهَا بِٱلِاعْتِيَادِ وَٱلتَّأَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَأْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ



البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَمَّا ٱلْاَخْلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَاِنَّ مِنْهَا (ٱلْعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبْطُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى ٱلِٱكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اَوَدَ ٱلْجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطْ وَٱجْتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصْدِ ٱلِٱعْتِدَالِ. وَاَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُسْتَحَبِّ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَى ٱلِٱرْتِضَاءِ بِهِ وَفِي اَوْقَاتِ ٱلْحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى ٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي لَا يُحْتَاجُ اِلَى اَكْثَرَ مِنْهُ. وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا اَيْضًا ٱلْقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلْعَيْشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَتَرْكُ ٱلْحِرْصِ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ وَطَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَاِيثَارِهِ وَٱلْمَيْلِ اِلَيْهِ وَقَهْرِ ٱلنَّفْسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱلتَّقَنُّعِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ يُسْتَحْسَنُ مِنْ اَوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ فَاَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ ٱلْقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ. فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلهزلِ ٱلقبيحِ ومخالطةِ اهلهِ وحضورِ مجالسهِ وضبطُ ٱللسانِ عن ٱلفحشِ وذكرِ ٱلخنا وٱلمزحِ وٱلسخيفِ وخاصةً في ٱلمحافلِ ومجالسِ ٱلمحتشمينَ اذ لا ابهةَ لمن يسرفُ في ٱلمزحِ ويفحشُ فيهِ . ومنَ ٱلتصونِ ٱلانقباضُ عنْ ادنياءِ ٱلناسِ واصاغرِهمْ ومصادقتِهمْ ومجالستِهمْ وٱلتحرزُ منَ ٱلعيشةِ ٱلزريَّةِ واكتسابِ ٱلاموالِ منَ ٱلوجوهِ ٱلخسيسةِ وٱلترفعُ عنْ طلبِ ٱلحاجاتِ منْ لئامِ ٱلناسِ وسفلتِهمْ وٱلتواضعِ لمنْ لا قدرَ لهُ وٱلاقلالُ منَ ٱلبروزِ اعني ٱلطوافَ منْ غيرِ اضطرارٍ وٱلتبذلَ بٱلجلوسِ في ٱلاسواقِ وقوارعِ ٱلطرقِ منْ غيرِ حاجةٍ حيثُ انَّ ٱلاكثارَ منْ ذلكَ لا يخلو منَ ٱلعيوبِ فانَّ اعظمَ ٱلناسِ قدرًا كما قيلَ منْ ظهرَ اسمُهُ وخفيَ جسمُهُ

(ومنها ٱلحلمُ) وهوَ تركُ ٱلانتقامِ عندَ شدةِ ٱلغضبِ معَ ٱلقدرةِ على ذلكَ وهذا ٱلخالُ محمودٌ ما لمْ يؤدِّ الى ثلمِ جاهٍ او فسادِ سياسةٍ وهوَ بٱلملوكِ وٱلرؤساءِ احسنُ لانهمْ اقدرُ على ٱلانتقامِ منْ مغضبيهمْ . ولا يعدُّ فضيلةً حلمُ ٱلصغيرِ على ٱلكبيرِ وانْ كانَ قادرًا على مقابلتهِ في ٱلحالِ فانهُ وانْ امسكَ عنهُ فانما يعدُّ ذلكَ منهُ خوفًا لا حلمًا

(ومنها ٱلوقارُ) وهوَ ٱلامساكُ عنْ فضولِ ٱلكلامِ وٱلعبثِ وكثرةِ ٱلاشارةِ وٱلحركةِ فيما يستغنى عنِ ٱلتحركِ فيهِ وقلةُ ٱلغضبِ وٱلاصغاءِ عندَ ٱلاستفهامِ وٱلتوقفُ عندَ ٱلجوابِ وٱلتحفظُ عندَ ٱلسرعةِ وٱلمبادرةِ في جميعِ ٱلامورِ . ومنْ قبيلِ ٱلوقارِ ايضًا ٱلحياءُ وهوَ غضُّ ٱلطرفِ وٱلانقباضُ منَ ٱلكلامِ حشمةً للمستحيينَ منهُ وهذهِ

ٱلعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلوُدُّ) وَهُوَ ٱلمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلاِنْسَانِ اِذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلوَقَارِ وَٱلاُبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَاَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى اَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ اَوْثَقُ ٱلوُدِّ وَاَثْبَتُهُ فَاَمَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا اَفْضَى اِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلوُدِّ وَٱلجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَاِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَالرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلقَاتِلِ عِنْدَ ٱلقَوَدِ وَٱلجَانِي عِنْدَ ٱلقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلاِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اَبْلَغَ فِي ٱلوَفَاءِ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

ٱلْجَاهِ إِلَّا أَنَّ ٱنْتِفَاعَ ٱلْمُلُوكِ بِهٰذَا ٱلْخُلُقِ أَنْفَعُ وَحَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ أَشَدُّ لِأَنَّهُ مَتَى عُرِفَ مِنْهُمْ قِلَّةُ ٱلْوَفَاءِ لَمْ يُوثَقْ بِمَوَاعِيدِهِمْ وَلَمْ تَتِمَّ أَغْرَاضُهُمْ وَلَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِمْ جُنْدُهُمْ وَأَعْوَانُهُمْ

(وَمِنْهَا أَدَاءُ ٱلْأَمَانَةِ) وَهُوَ ٱلتَّعَفُّفُ عَمَّا يَتَصَرَّفُ ٱلْإِنْسَانُ فِيهِ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ وَمَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْحُرَمِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَرَدِّ مَا يُسْتَوْدَعُ إِلَى مُودِعِهِ

(وَمِنْهَا كِتْمَانُ ٱلسِّرِّ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَأَدَاءِ ٱلْأَمَانَةِ . فَإِنَّ إِظْهَارَ ٱلسِّرِّ مِنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ . وَلَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ تَكَلَّمَ بِٱلْفُضُولِ وَٱلْفُضُولِيُّ نَاقِصُ ٱلشَّرَفِ . فَكَمَا أَنَّ مَنِ ٱسْتُودِعَ مَالًا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ مُودِعِهِ قَدْ حَقَرَ ٱلْأَمَانَةَ كَذٰلِكَ مَنِ ٱسْتُودِعَ سِرًّا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ فَقَدْ حَقَرَ ٱلْأَمَانَةَ أَيْضًا . وَكِتْمَانُ ٱلسِّرِّ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَخَاصَّةً مَنْ يَصْحَبُ ٱلسُّلْطَانَ وَأَوْلِيَاءَ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّ إِخْرَاجَهُ أَسْرَارَهُمْ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ يُؤَدِّي إِلَى ضَرَرٍ عَظِيمٍ وَبَلَاءٍ جَسِيمٍ

(وَمِنْهَا ٱلتَّوَاضُعُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلتَّرَؤُّسِ وَإِظْهَارُ ٱلْخُمُولِ وَكَرَاهِيَةُ ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْإِكْرَامِ وَأَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْمُبَاهَاةَ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمُفَاخَرَةَ بِٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَأَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ ٱلْإِعْجَابِ وَٱلْكِبْرِ. وَلَا يُحْمَدُ ٱلتَّوَاضُعُ إِلَّا مِنْ أَكَابِرِ ٱلنَّاسِ وَرُؤَسَائِهِمْ وَأَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْعِلْمِ . وَأَمَّا مَا سِوَى هٰؤُلَاءِ فَلَا يَكُونُونَ مُتَوَاضِعِينَ بِٱلتَّوَاضُعِ لِأَنَّ ٱلضَّعَةَ هِيَ مَحَلُّهُمْ وَمَرْتَبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُتَّضِعِينَ

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغَضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلِٱغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ.
وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الَى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ
جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا
وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَامَّا فِي ٱلْمُلُوكِ
وَٱلْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي إِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي
ٱلْأَحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ
وَٱلْأَعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ
ٱلْحَاجَةِ الَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اي ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِٱسْتِهَانَةُ
بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ
وَأَعْوَانِهِمْ أَلْيَقُ وَاحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ
ٱلْخَلَّةَ. وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ اخْطَارًا وَاحْوَجُهُمْ إِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ
ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ إِذًا مِنْ اخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

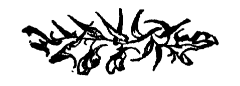
(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا
يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِٱجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةٍ اعْلَى مِنْ
دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ
ٱلْعَالِيَةِ اوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا فَامَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ
ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ
وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَالِاجْتِهَادُ دَافِعَةً ضَرَرِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتَ الْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ الْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ الْهِمَّةِ) وَهُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْمَرَاتِبِ السَّامِيَةِ وَاسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْعَطِيَّةِ وَالِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَطَلَبِ الْغَايَاتِ وَالتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ امْتِنَانٍ وَلَا اعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِالرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ الْهِمَّةِ الْأَنَفَةُ وَالْحَمِيَّةُ وَالْغَيْرَةُ . فَالْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدَّنِيَّةِ وَالْحَمِيَّةُ وَالْغَيْرَةُ مَعًا وَالْغَضَبُ عِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِالنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ الْإِنْسَانَ الْغَيْرَةُ عَلَى الْحُرَمِ لِأَنَّ فِي التَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ الْمُتَعَرِّضَ لِلْحُرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَالِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ الْهِمَّةِ الْأَنَفَةُ مِنْهُ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ

(وَمِنْهَا الْعَدْلُ) وَهُوَ التَّقَسُّطُ اللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَاسْتِعْمَالُ الْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَامَّا ٱلاخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَانَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِانْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلْإِدْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيُذْهِبُ بَهَاءَ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُنَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْأَعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشُ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سِرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْحَرَكُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلْاِحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

وَمَنفعةٌ. وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ اَقبحُ وَاضرُّ فَاِنَّ مَن عُرِفَ مِنهُم بِالْغَدرِ لَم يَرْكُن اِلَيهِ اَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ اِنسانٌ فَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلكِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْخِيَانَةُ) وَهِيَ ٱلِاسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ ٱلْإِنسَانُ عَلَيهِ مِنَ ٱلْاَموَالِ وَٱلْاَعرَاضِ وَٱلْحُرَمِ وَتَمَلُّكُ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمُجَاحَدَةُ مُودِعِهِ. وَمِنَ ٱلْخِيَانَةِ اَيضًا طَيُّ ٱلْاَخبَارِ اِذَا نُدِبَ ٱلْاِنسانُ لِتَأْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ ٱلرَّسَائِلِ اِذَا حَمَلَهَا وَصَرَفَهَا عَنْ وَجهِهَا. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ اَعنِي ٱلْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنَ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَيَثْلِمُ ٱلْجَاهَ وَيَقطَعُ وُجُوهَ ٱلْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا اِفشَاءُ ٱلسِّرِّ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْخِيَانَةِ فَاِنَّهُ لَيسَ بِمَوْثُورٍ مَن لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَٱلسِّرُّ اَحَدُ ٱلْوَدَائِعِ وَاِفشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَٱلْمُفْشِي بِٱلسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ ٱلْمُلُوكَ وَاَوْلِيَاءَ ٱلْاُمورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ. وَمِنْ قَبِيلِ اِفشَاءِ ٱلسِّرِّ اَيضًا ٱلْغِيبَةُ وَٱلنَّمِيمَةُ وَهِيَ اَنْ يَبلِّغَ اِنسانٌ اِنسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ اَيضًا بِمَا يَسْمَعُهُ اَوْ يَبلُغُهُ فَنَقْلُهُ اِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِاَنَّ فِي ذٰلِكَ اِيقَاعَ وَحشَةٍ بَيْنَ ٱلْمُبَلِّغِ وَٱلْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلْكِبْرُ) وَهُوَ اسْتِعْظَامُ ٱلْاِنسَانِ نَفْسَهُ وَٱسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلِاستِهَانَةُ بِٱلنَّاسِ وَٱسْتِصْغَارُهُمْ وَٱلتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ ٱلتَّوَاضُعُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِاَنَّ

مَنْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ إِذْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ أَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَإِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ. فَإِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالِاسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْإِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ أَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْإِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْأَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَكْثَرُ قُبْحًا لِأَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ إِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَإِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ إِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي إِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الِانْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي إِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

في حكمهم ويبغضهم الى رعيتهم

(ومنها الجبن) وهو توهم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء . وهذا الخلق مكروه الا انه بالجنود واصحاب الحروب مضر جدا

(ومنها الحسد) وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام الغير ما هو له . وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل احد

(ومنها الجزع عند الشدة) وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن . وهو مستقبح جدا اذا لم يكن مجديا نفعا واما اظهاره للحيلة عند الوقوع في الشدة او لاستغاثة مغيث او اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة

(ومنها صغر الهمة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الامل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها . وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء اقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كاخذ الاموال من غير وجوهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا اوقاتها ولا على القدر

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلى ٱلْوَجهِ ٱلَّذي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرفُ وَٱلتَّبْذِيرُ أَيضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ ٱلإِنْسَانُ بِٱلتَّعظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلمدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلجمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلى فَضِيلَةٍ وُجِدَت فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى ٱلِٱزْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَأَمَّا ٱلأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهلِ ٱلْفَضلِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَغرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَأَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَٱلشُّيوخُ وَاهلُ ٱلعلمِ وخاصّةً ٱلخطباءُ وٱلواعظون ورؤساءُ ٱلدين فانَّ ٱلتصنّعَ بالزينة مُستقبحٌ منهم وٱلمستحسن بهم هو لُبس ٱلخشن وكراهيةُ ٱلتنعّم ولزوم بيوت ٱلصلاة

(ومنها ٱلمجازاة على ٱلمدح) وهو مجازاة من يمدح ٱلانسان ويشكره في ٱلمجالس وٱلمحافل. وهذا ٱلخلق مستحسن من ٱلملوك وٱلرؤساء لانه يدعو ٱلمادح الى ٱلازدياد في مدحه فيكتسب ٱلممدوح ذكرًا جميلا يبقى الى ٱلدهر. ومن فضائل ٱلملوك وٱلرؤساء بقاء ذكرهم ٱلجميل. وامّا محبّتهم سماع ٱلمدح من ٱلمادح مواجهة فذلك غير مستحبّ منهم لانه من جنس ٱلملق وحبّ ٱلملق مكروه لكونه من قبل ٱلخديعة كما تقدّم. فامّا ايثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم وتناول ٱلناس له وبقاؤه بعدهم فانه محمود. ومجازاة ٱلمادح مستحسنة من ٱلملوك ومنعهم مستقبح وعار عليهم لانّ ذلك يدعو الى ذمّهم وذمّهم يبقى ايضًا الى ٱلدهر فينشئ لهم ذكرًا قبيحًا وذلك مكروه من ٱلملوك وٱلرؤساء. امّا اصاغر ٱلناس فمحبّتهم جزاء ٱلمادح لهم غير مستحسن لانّ ٱلمادح اذا مدح ٱلدنيء من ٱلناس فانما يخدعه فاذا اجازه اعتقد انه اخذ منه تلك ٱلجائزة بالحيلة. وكثير من ٱلناس اذا مُدحوا بما ليس فيهم يبادرون الى مجازاة ٱلمادح فيكونون قد وضعوا ٱلشيء في غير موضعه فلو صرفوا ذلك ٱلشيء الى ٱلضعفاء واهل ٱلمسكنة كان ذلك اجمل بهم وَالْيَق

(ومنها ٱلزهد) وهو قلّة ٱلرغبة في ٱلاموال وٱلادّخار وغيرها

وَايثارُ ٱلقَناعَةِ بِمَا يُقيمُ ٱلرَمَقَ وَٱلِاسْتِخْفافُ بِٱلدُّنيا وَمحاسِنِها ولَذَّاتِها وَقِلَّةُ ٱلِاكْتِراثِ بِٱلمَراتِبِ ٱلعالِيَةِ وَاسْتِصْغارُ ٱلمُلوكِ وَمَمالِكِهِمْ وَارْبابِ ٱلأَموالِ وَاَموالِهِمْ. وَهٰذا ٱلخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلعُلَماءِ وَرُؤَساءِ ٱلدِّينِ وَٱلخُطَباءِ وَٱلوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلمَعادِ وَٱلبَقاءِ بَعْدَ ٱلمَوْتِ. فَاَمَّا ٱلمُلوكُ وَٱلعُظَماءُ فَاِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِاَنَّ ٱلمَلِكَ اِذَا اَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صارَ ناقِصًا اِذْ اِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ اِلَّا بِٱحْتِشادِ ٱلاَموالِ وَٱلاَعْراضِ وَادِّخارِها لِيُدَبِّرَ بِها مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِها حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِها رَعِيَّتَهُ وَهٰذا مُضادٌّ لِلزُّهْدِ فَاِنَّهُ اِذا تَرَكَ ٱلِادِّخارَ اَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلمُلوكِ ٱلحائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّياسَةِ

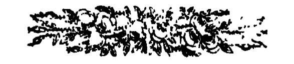
فَهٰذِهِ ٱلاَقْسامُ ٱلَّتِي ذَكَرْناها هِيَ اَخْلاقُ جَميعِ ٱلنَّاسِ. اَمَّا ٱلمَمْدُوحَةُ مِنْها ٱلمَعْدُودَةُ فَضائِلَ فَقَلَّما تَجْتَمِعُ كُلُّها فِي اِنْسانٍ واحِدٍ وَاَمَّا ٱلمَذْمُومَةُ مِنْها ٱلمَعْدُودَةُ نَقائِصَ وَمَعائِبَ فَقَلَّما يُوجَدُ اِنْسانٌ يَخْلُو مِنْ جَميعِها حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُها. فَاِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَاِنْ لَمْ يُحِسَّ بِها وَلَمْ يَفْطَنْ اِلَيْها. وَاِذا كانَ ٱلحالُ عَلَى مَا ذَكَرْناهُ كانَ اَوْلَى ٱلاُمورِ بِٱلاِنْسانِ اَنْ يَتَفَقَّدَ اَخْلاقَهُ وَيَتَاَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي اِصْلاحِها وَنَفْيِها عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ ٱلاَخْلاقَ ٱلمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيادِها وَٱلتَّخَلُّقِ بِها لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّما يَتَفاضَلُونَ عَلَى ٱلحَقِيقَةِ بِفَضائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معائبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلْمَحْظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلْأَمْوَالِ فَٱلْفَقِيرُ ٱلْمُعْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلْفَقْرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فَيُنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ . فَٱلْخَلِيقُ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلْآدَابِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلْمَحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عَظِيمَ ٱلْجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلْعَظَمَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ بِٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمَالَ قَدْ تَلْحَقُهُ ٱلْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلْعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُعَظِّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفْسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِهِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ ٱلْعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُهَذَّبُ ٱلْأَخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجْلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وربما ان الراغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب اخلاقه اذا نبه على خلق مذموم وجد فيه واحب اجتنابه ربما صعب عليه الانتقال عنه من اول وهلة وربما لم ينل التخلص منه ولم يطاوعه طبعه او ربما استحسن ايضًا خلقًا محمودًا لا يجده لنفسه وآثر التخلق به لم تسمح له عادته ولم يصل الى مراده. لذلك وجب ان نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقًا يتدبرون بها ويتدرجون فيها حتى ينتهوا الى مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها وتجنب الاخلاق القبيحة والتفرغ منها ولهذا نذكر طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتعمل لاعتيادها لكي يمكن للراغب ان يتخلق بها فنقول:

انه لامر مقرر ان سبب اختلاف الاخلاق في الناس هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم وهي الشهوانية والغضبية والناطقة وان اصلاح الاخلاق هو تذليل الشهوانية منها والغضبية وتمييز

(*) اعلم ان ما يقوله هنا لزكريا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيره. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور منوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ ٱلمَحمُودِ مِنْ افعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ لِاستِعمَالِ ٱلعَادَاتِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلعُدُولُ عَنِ ٱلعَادَاتِ ٱلقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدَرُّجُ فِي تَذلِيلِ هَاتَينِ ٱلقُوَّتَينِ

امَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ إِلَى قَمعِهَا انْ يَتَذَكَّرَ ٱلإِنسَانُ فِي اوقَاتِ شَهوَاتِهِ وَعِندَ شِدَّةِ ٱلعَزمِ إِلَى لَذَّاتِهِ انَّهُ يُرِيدُ تَذلِيلَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ فَيَعدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفسُهُ إِلَيهِ مِنَ ٱلشَّهوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُستَحسَنٌ مِنْ جِنسِ تِلكَ ٱلشَّهوَةِ وَمُتَّفَقٌ عَلَى ارتِضَائِهِ وَيَقتَصِرُ عَلَيهِ. فَإِنْ لَمْ تَنكَسِرْ شَهوَاتُهُ يُعَلِّلُهَا وَيَعِدُهَا فَإِنْ سَكَنَتِ انتَصَرَ وَإِلَّا عَاوَدَ الفِعلَ مِنَ ٱلوَجهِ ٱلمُستَحسَنِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَإِذَا استَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلحَالِ الِفَتْ هٰذِهِ ٱلعَادَةَ وَتَانَّسَتْ بِهَا وَاستَوحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنبَغِي لِمَنْ ارَادَ قَمعَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ انْ يُكثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ وَٱلوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاهلِ ٱلعِلمِ. فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعرُوفًا بِٱلعِفَّةِ وَيَستَهزِئُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلمَجَالِسِ تَضطَرُّهُ إِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوِيهِم لِئَلَّا يَستَهزِئُوهُ وَيَغضَبُوا مِنهُ وَيَلحَقَ بِرُتبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَجَالِسِ. وَيَنبَغِي لَهُ ايضًا انْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاخبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ. وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلمُنهَمِكِينَ وَمَنْ يُكثِرُ ٱلهَزلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلحَقُ بِرُتبَتِهِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ. وَاكثَرُ مَا

يجب له ان يتجنب السكر فإنه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها .. وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من استماع الغناء وخاصة من النساء المتصنعات والشبان الظرفاء فإن السماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة ... اما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع الم الجوع . وفاخر الطعام ودنيئه جميعهما مشبعان فليس للمبالغة في تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة . والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده والفه ... وطريق التدرج الى الاقتصار في الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى اي شيء وجده من المأكل فإن كان المشتهى الذي تاقت نفسه اليه حلوا فالا اي حلاوة وجدها وان كان غير ذلك فالا ما يشتهيه من الطعام فإنه اذا تناول الانسان من ذلك تكرارا وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك

وينبغي لمن احب العفة ان يكون ابدا متيقظا ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار في الدنيا جاعلا ذلك ديدنه وشعاره ومداوما على ذكره . فإن نفسه حينئذ تبغض الشهوات الرديئة وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها . فهذا هو طريق رياضة النفس

اِلَى قَهرِ ٱلقُوَّةِ لِشَهوَانِيَّةِ وَتَذلِيلِهَا وَقَمعِهَا اَعنِي طَرِيقَ ٱلاِرتِيَاضِ بِٱلعَادَاتِ ٱلمَحمُودَةِ ٱلمَرضِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱلشَّهوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ ٱلدَّنِيئَةِ

فَامَّا ٱلنَّفسُ ٱلغَضَبِيَّةُ فَانَّ طَرِيقَ قَمعِهَا وَتَذلِيلِهَا هُوَ اَن يَصرِفَ ٱلاِنسَانُ هِمَّتَهُ اِلَى تَفَقُّدِ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلَّذِينَ يُسرِعُ اِلَيهِمِ ٱلغَضَبُ فِي اَوقَاتِ طَيشِهِم وَحِدَّتِهِم وَيُلَاحِظَ تَسَفُّهَهُم عَلَى اَخصَامِهِم وَعُقُوبَتَهُم لِخَدَمِهِم وَعَبِيدِهِم فَانَّهُ يُشَاهِدُ اِذ ذَاكَ مَنظَرًا شَنِيعًا يَأنَفُ مِنهُ ٱلخَاصُّ وَٱلعَامُّ وَانْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوقَاتِ غَضَبِهِ وَعِندَ جِنَايَاتِ خَدَمِهِ وَعَبِيدِهِ وَوُثُوبِ اِخوَانِهِ وَاَودَّائِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا شَاهَدَهُ مِن اُولٰئِكَ . فَانَّهُ اِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ ٱستَخَفَّهُ مِنهُم فَتَنكَسِرُ بِذَلِكَ سَورَةُ غَضَبِهِ وَيُحجِمُ عَمَّا هَمَّ بِٱلاِقدَامِ عَلَيهِ مِنَ ٱلسَّبِّ وَٱلوُثُوبِ فَانْ لَم يَكُفَّ بِٱلكُلِّيَّةِ قَصَّرَ وَلَم يَنتَهِ اِلَى غَايَةِ ٱلفُحشِ

وَيَنبَغِي لِمَن اَرَادَ اَن يَقهَرَ نَفسَهُ ٱلغَضَبِيَّةَ اَن يَتَذَكَّرَ فِي اَوقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَن يُؤذِيهِ اَو يَتَجَنَّى عَلَيهِ اَنَّهُ لَو كَانَ هُوَ ٱلجَانِي مَا ٱلَّذِي كَانَ يَستَحِقُّ اَن يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جِنَايَتِهِ فَانَّهُ بِهٰذَا ٱلفِعلِ يَعتَقِدُ اَنَّ دَرَكَ تِلكَ ٱلجِنَايَةِ وَذَلِكَ ٱلاَذَى يَسِيرٌ . جِدًّا فَاِذَا ٱعتَقَدَ ذَلِكَ كَانَت مُقَابَلَتُهُ لِلجَانِي ٱلمُؤذِي بِحَسَبِ اعتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَحِينَئِذٍ لَا يُسرِفُ فِي ٱلاِنتِقَامِ وَلَا يُفحِشُ فِي ٱلغَضَبِ فَمَتَى فَعَلَ ذَلِكَ دَائِمًا وَجَعَلَهُ دَيدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ ٱلسُّفَهَا . وَمَن يُسرِعُ اِلَيهِ ٱلغَضَبُ لَم يُبعِدْ اَن تَنكَسِرَ نَفسُهُ ٱلغَضَبِيَّةُ وَتَنقَادَ اِلَيهِ وَاِذَا ٱستَمَرَّ عَلَى هٰذَا

ٱلْعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلُقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ ٱلْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلْحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلْقَلْبِ وَتَغَاظُهُ وَتَعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلْوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلْغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْفِكْرَ وَلَا يُقْدِمَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلْفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ ٱلرَّأْيَ وَجُودَةَ ٱلْفِكْرِ يُقَبِّحَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلْغَضَبِ وَٱلِٱنْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَإِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ أَحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلْفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلْكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلْقُوَّةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلْقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمْكَنَهُ أَنْ

يَسُوس بِهَا قُوَّتيهِ ٱلبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفُّ نَفسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلأَخلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلعُلُومِ ٱلعَقلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيهَا تَيَقَّظَتْ نَفسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَنْخَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلفَضَائِلَ وَٱلمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلقُوَّةِ هِيَ ٱلعُلُومُ ٱلعَقلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفسِهِ وَمَلَكَ أَخلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلِٱرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفسُ ٱلإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيضًا مُجَالَسَةُ أَهلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِأَخلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمْ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ. فَإِنَّهَا إِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْأَخلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِٱعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْإِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهُمَا أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

وَقْتِ ٱسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ امَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا إِلَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْإِسْرَاعِ إِلَى ٱلْانْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ أَمْرَهُ فَرَأَى انَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَيْرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ٱرْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ ايْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْإِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَأَمْثَالِ هٰذِهِ اِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَإِنْ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِأَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْإِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَإِذَا حَاسَبَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ انَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْأَخْلَاقِ اكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَانَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَاِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٌّ وَانَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ ارَادَ سِيَاسَةَ اخْلَاقِهِ انْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى اِلَّا

بِأعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذٰلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي الْفَضَائِلِ وَيَبْلُغَ فِيهَا رُتْبَةً مَرْضِيَّةً إِنْ فَاتَتْهُ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ قَنِعَ بِالتَّوَسُّطِ يَأْمَنُ أَنْ يُقَصِّرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَيَبْقَى فِي أَدْنَى الْمَرَاتِبِ وَيَفُوتُهُ الْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي التَّمَامِ.

فَهٰذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ الْاِرْتِيَاضِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَنْهَجُ التَّدَرُّجِ فِي مَحْمُودِهَا وَكَيْفِيَّةِ تَهْذِيبِهَا فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ نَفْسِهِ بِهِ وَأَكْثَرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُّدِهِ صَارَتْ لَهُ الْفَضَائِلُ دَيْدَنًا وَالْمَحَاسِنُ خُلُقًا وَطَبْعًا

هٰذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ الْإِنْسَانِ التَّامِّ الْجَامِعِ لِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ... فَنَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ التَّامَّ هُوَ الَّذِي لَمْ تَفُتْهُ فَضِيلَةٌ مِنَ الْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشِنْهُ رَذِيلَةٌ مِنَ الرَّذَائِلِ وَهٰذَا الْحَدُّ قَلَّمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ افْتِرَاضًا كَانَ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالنَّاسِ. وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ النَّقْصِ مُسْتَوْلٍ عَلَى طَبْعِهِ ضُرُوبُ الشَّرِّ وَبِنَاءً عَلَى ذٰلِكَ فَقَلَّمَا يَخْلُصُ مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمَنْقَصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ فَضِيلَةٍ وَمَنْقَبَةٍ حَسَنَةٍ فَالتَّمَامُ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ التَّنَاوُلِ إِلَّا أَنَّهُ مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ وَأَعْطَى الْاِجْتِهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمْكِنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ الْمُتَهَيِّئِ هُوَ لَهَا تِلْكَ الَّتِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذٰلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَفَقِّدًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَيَقِّظًا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ • •

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُنِّنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ • وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلْكُتَّابِ : أَمعاشِرَ ٱلْكُتَّابِ أَحسِنُوا ٱلْابتِدَاءَاتِ فَإِنَّهنَّ دَلَائِلُ ٱلْبَيَانِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَأَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِإِلْقَائِهِ فَيَنظُرَ إِلَى ٱلْغَرَضِ ٱلْمَطْلُوبِ فَيَجْعَلَ ٱلتَّحْمِيدَ أَوِ ٱلدُّعَاءَ أَوِ ٱلتَّضْمِينَ مُشْعِرًا بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْبَلَاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ ٱلِٱبْتِدَاءَاتُ بِٱلِٱخْتِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَطْرُقُ ٱلسَّمْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا كَانَ ٱلِٱبْتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱسْتِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعْدَهُ فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ أَنْ يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْوَاعِظُونَ أَكْثَرَ ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ لِأَنَّ ٱلنَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

إِلَى ٱلْاِسْتِمَاعِ . وَقَدْ قِيلَ : كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ أَبْتَرُ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ أَوِ ٱلرَّسَائِلِ أَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ . إِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي . وَفَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحُ ٱلْمُتَكَلِّمُ أَبْوَابَ ٱلْأَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرُ ٱلْأَذْهَانَ لِلْاِسْتِمَاعِ . وَهٰذَا ٱلشَّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ إِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَإِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ . وَٱلْقَضِيَّةُ إِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَإِمَّا شَرْطِيَّةٌ . قَالُوا : إِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ أَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

اَلْحُكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً . فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا : (زَيْدٌ نَائِمٌ) . قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ . لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ التَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى الطَّرَفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ الْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَالثَّانِي مَحْمُولًا . وَقَوْلَنَا : (إِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ طَالِعَةً فَالنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ . لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَالْفَاءَ) الْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ : (الشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَالنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ . وَالْقَضِيَّةُ الْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ . وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْمَوْضُوعِ . وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً . وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ عَلَى التَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ الْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ : لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا . وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِامْتِنَاعِ اجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي الصِّدْقِ وَهِيَ الَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ : اَلْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ . وَيُسَمَّى الطَّرَفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَالثَّانِي تَالِيًا . وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ وَالْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (الْقَضِيَّةُ الْبَسِيطَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِالضَّرُورَةِ .

وَإِمَّا سَلْبٌ فَقَطْ نَحْوُ: لَا شَيْءَ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ إِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ إِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ. فَهِيَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ أُصُولًا. وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعِهَا تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدِّمَةً وَقَضِيَّةً. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليّات لابي البقا)

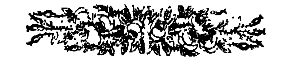
(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَأَمَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ ٱضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا: ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ. وَٱلْقَوْلُ ٱلْآخَرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ إِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيهِ وَيُسَمَّى بِٱلرِّدْفِ أَيضًا. وَمَوْضُوعُ ٱلنَّتِيجَـةِ هُوَ ٱلحَدُّ ٱلْأَصْغَرُ وَٱلْمَحْكُومُ فِيهَا هُوَ ٱلحَدُّ ٱلْأَكْبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي ٱلْقَضِيَّتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا أَوْسَطَ. وَيَدْعُونَ ٱلْقَضِيَّةَ ٱلْمُشْتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلْأَكْبَرِ مُقَدَّمَةً كُبْرَى وَٱلْمُشْتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلْأَصْغَرِ مُقَدَّمَةً صُغْرَى. وَمَجْمُوعُ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلصُّغْرَى بِٱلْكُبْرَى فِي ٱلْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِٱلضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ ٱلحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ إِلَى ٱلْأَصْغَرِ وَٱلْأَكْبَرِ هُوَ ٱلشَّكْلُ. وَأَشْكَالُ ٱلْقِيَاسِ أَرْبَعَةٌ لِأَنَّ ٱلْأَوْسَطَ إِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي ٱلصُّغْرَى مَوْضُوعًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي ٱلنَّارِ. وَشَرْطُ إِنْتَاجِ هٰذَا ٱلشَّكْلِ إِيجَابُ ٱلصُّغْرَى وَكُلِّيَّةُ ٱلْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِأَنَّهُ يُنْتِجُ ٱلْمُوجَبَةَ ٱلْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي ٱلْأَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ ٱلْمُوجَبَةَ ٱلْكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجَبَةً جُزْئِيَّـةً أَوْ سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ ٱلحَدُّ ٱلْأَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي ٱلصُّغْرَى وَٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِإِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ ٱلْبَعْضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجْهُولُ ٱلصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيْعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ ٱلصِّفَـةِ فَٱلنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيْعُهُ. وَشَرْطُ إِنْتَاجِهِ ٱخْتِلَافُ مُقَدَّمَتَيْـهِ فِي ٱلْإِيجَابِ وَٱلسَّلْبِ وَكُلِّيَّةُ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّـهِ أَنَّهُ لَا يُنْتِجُ إِلَّا سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ ٱلْأَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى وَٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلثَّالِثُ) نَحْوَ كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ إِنْتَاجِهِ أَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجَبَـةً

وَأنْ تَكُونَ إِحْدَى مُقَدِّمَتَيْهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ إِلَّا جُزْئِيَّةً. وَإِنْ كَانَ ٱلْحَدُّ ٱلأَوْسَطُ عَكْسَ ٱلأَوَّلِ بِأَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ إِنْسَانٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَٱلْقِيَاسُ يَنْقَسِمُ إِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَٱلْقِيَاسُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَٱلْغَيْرُ ٱلْكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي أَوَّلِ ٱلأَمْرِ أَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ. بَلْ إِذَا أُرِيدَ أَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ إِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ أَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَٱفْتِرَاضُهُ. وَٱلْقِيَاسُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِٱلْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقْتِرَانِ ٱلْحُدُودِ فِيهِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ أَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: إِنْ كَانَتِ ٱلنَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيَّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِاَقسامِ اَلقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ اُخَرُ يُقسَمُ اِلَيهَا . (اَوَّلُهَا) اَلقِيَاسُ اَلمُرَكَّبُ وَهوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّماتٍ يُنتجُ مُقدَّمتَانِ مِنهَا نَتيجَةً وَهِيَ مَعَ اَلمُقَدَّمَةِ اَلاُخرَى نَتيجَةٌ اُخرَى وَلَا تَزَالُ نَتَائِجُ بَعضِهَا مُقدَّماتٍ لِبَعضٍ اِلَى اَنْ يَحصُلَ اَلمَطلُوبُ . فَاِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلكَ اَلاَقيِسَةِ سُمِّيَ مَوصُولَ اَلنَّتَائِجِ لِوَصلِ تِلكَ اَلنَّتَائِجِ بِاَلمُقَدَّمَاتِ كَقَولِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ اِنسَانٌ وَكُلُّ اِنسَانٍ حَيوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلكَ اَلاَقيِسَةِ سُمِّيَ مَفصُولَ اَلنَّتَائِجِ وَمَطوِيَّهَا كَقَولِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ اِنسَانٌ . وَكُلُّ اِنسَانٍ حَيوَانٌ . وَكُلُّ حَيوَانٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ . وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . (وَاَلثَّانِي) قِيَاسُ اَلخُلفِ . وَهُوَ قِيَاسٌ اَستِثنَائِيٌّ يُقصَدُ فِيهِ اِثبَاتُ اَلمَطلُوبِ بِاِبطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا اِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ اَلجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ اَلنَبَاتِ بِجَمَادٍ . فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ اَلمَطلُوبُ حَقًّا اَيْ لَا شَيْءَ مِنَ اَلنَبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ اَيْ بَعضُ اَلنَبَاتِ جَمَادٌ . لَكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

ٱلنَّقِيضُ حقًّا لَمَا صدقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا. وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلقِيَاسُ خَلفًا لِأَنَّ ٱلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلفِهِ اي مِنْ وَرَائِهِ . (وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ. وَيُحَدُّ أَيضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيضًا: هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ: كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ أَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتِجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ. (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا: كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ ٱلْأَسْفَلُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ. (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ. كَقَوْلِكَ: ٱلعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقْسَمُ إِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ. (أَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ . (وَالثَّانِي) الْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ نَحْوُ : الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَالثَّالِثُ) الْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ : الصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ . وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ . (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : الْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ النَّفْسَ . (وَالْخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ : هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخَطَابِيِّ أَيْ ذِي الْمُقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْاِسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

ٱسْتِقْرَاءٌ وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي ٱلْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلْاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلْآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلْاسْتِقْرَاءَ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ٱسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ بِٱسْتِقْرَاءٍ. فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلْاسْتِقْرَاءُ ٱلْخُطْبِيُّ. وَٱلْخُطَبَاءُ إِذَا تُؤُمِّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ أَعْنِي إِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَإِمَّا بِٱلضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَؤُمُّونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلْاسْتِقْرَاءِ وَٱلْقِيَاسِ. وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِٱلْقِيَاسِ وَأَنَّ ٱلْاسْتِقْرَاءَ وَٱلْمِثَالَ إِنَّمَا يُفِيدَانِ ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْقِيَاسِ. فَأَمَّا مَا هُوَ ٱلْقِيَاسُ وَمَا ٱلْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ أَيْضًا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِيَاسِ وَٱلْاسْتِقْرَاءِ. وَٱلْاسْتِقْرَاءُ وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ أَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ أَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ وَٱلْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هٰذَيْنِ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْقَوْلِ نَوْعًا خُطْبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ وَٱلْقِيَاسُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ يُوجَدُ فِي ٱلْخَطَابَةِ ٱلْمِثَالُ وَٱلضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ بِجِهَةِ ٱلِاسْتِعْمَالِ أَعْنِي فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ. وَٱلْقِيَاسُ فِي ٱلْجَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَٱلْمِثَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَقْنَعُ مِنَ ٱلضَّمِيرِ لِأَنَّ ٱلضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلْعِنَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى ٱلْمِثَالِ وَسَبَبُ هٰذَا سَنُخْبِرُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذٰلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ. فَأَمَّا ٱلْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نُحَدِّدَ هٰذَيْنِ ٱلطَّرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَعْنِي ٱلضَّمِيرَ وَٱلْمِثَالَ فَنَقُولُ:

إِنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلْمُقْنِعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ ٱلنَّاسِ. وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هٰذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ. وَٱلَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعِ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: إِنَّ شَرَابَ ٱلسَّكَنْجَبِينِ يَنْفَعُ فُلَانًا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلضَّمِيرَ. (وَٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَقُولَ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ. إِنَّ فُلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ لسَّكَنْجَبِينِ لِأَنَّ فُلَانًا ٱنْتَفَعَ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمِثَالَ. وَٱلْمُقْنِعَاتُ ٱلَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتَّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدَّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدَّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كَانَتْ تُصْنَعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُمْكِنَةِ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشَاوَرِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يُشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرُورِيِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعِ ٱلْوُجُودِ وَكَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمَوَادِّ كَاذِبَةً بِٱلْجُزْءِ لَمْ يُصَرِّحُوا بِهَا فِي ٱلْمَقَايِيسِ ٱلَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِئَلَّا يُفْطَنَ لِكَذِبِهَا . وَأَيْضًا فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْجَيِّدَةُ ٱلصَّنْعَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِمَّا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْبَيِّنَةِ إِقْنَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ مُقَدَّمَاتٍ تَتَبَيَّنُ مُقَدَّمَاتُهَا بِمُقَدَّمَاتٍ أُخَرَ تُخْلَطُ بِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتَبَيَّنْ حَمْدُهَا . فَقَدْ يَلْحَقُ ضَرُورَةً فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي أَنْ يَعْسُرَ تَأْلِيفُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ لِمَكَانِ كَثْرَةِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَطُولِ ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي يُصَرَّحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتُرَتَّبُ تَرْتِيبًا صِنَاعِيًا وَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ ٱلْحُكَّامُ بَلْ يَحْمِلُونَ ٱلْمُتَكَلِّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ فِيهِ صَنْعَةً عَلَى ٱلْجُمْهُورِ فِي ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ ٱلْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُقْنِعٍ . وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا ٱلْإِقْنَاعُ أَعْنِي فِي أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ مَحْمُودٌ أَوْ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَكَذٰلِكَ إِذَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلتَّصْدِيقُ بِطَرِيقِ أَخْذِ ٱلْأَشْبَاهِ فَٱسْتُقْصِيَ وَجُعِلَ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ عَرَضَ ٱلْعُسْرُ ٱلَّذِي وَصَفْنَاهُ مِنَ ٱلطُّولِ وَٱلْكَثْرَةِ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَإِذَنْ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطَبِيُّ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ وَٱلْمِثَالُ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْقِيَاسُ وَٱلِٱسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

ٱلأَشْيَاء مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاء . فَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاء بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاءً وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا . وَإِذَا أُخِذَتْ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا . وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ أَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارِ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَإِنَّ ٱلْإِقْنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ إِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ . وَعَلَى هَذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ إِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتِهِ وَبِهَذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذَلِكَ فِي ٱلْأَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذَلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ. وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ انَّهَا كُلَّهَا
أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَـةُ ٱلْوُجُودِ .
وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ
وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ
مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ. وَاعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ
ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ انَّهُ يَنْبَغِي انْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَانْ يُسَاءَ
اِلَى ٱلْمُسِيءِ. وَاعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ
لِشَيْءٍ. وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ
وَٱلْمُمْكِنَةِ اعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ. وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ
عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي
نِسْبَتُهَا اِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ نِسْبَةَ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَكْثَرِ
اِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ انَّ ٱلصِّدْقَ
فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ اعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ اِذْ
كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ لَا
تُوجَدُ لِكُلِّهِ. وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي اِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ
عَلَى ٱلْأَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ اعْنِي انَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ
تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى اكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى
ٱلتَّسَاوِي. وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا اوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ اعَمُّ مِنَ
ٱلطَّرَفِ ٱلْأَصْغَرِ وَاخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ اعَمُّ مِنَ
ٱلطَّرَفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ اخَصُّ مِنْهُمَا . امَّا ٱلَّذِي هُوَ اعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

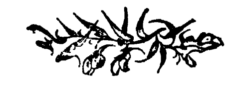
ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمُتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدَّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدَّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لَكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدّلائل الّتي تكون في الشّكل الثالث والثّاني تخصّ باسم العلامة وما كان منها في الشّكل الاوّل تخصّ باسم الدّليل . والّذي في الشّكل الثّاني هو اخصّ باسم العلامة من الثّالث كما انّه ما كان من ذلك في المُمكنة الاكثريّة تخصّ باسم الاشبه وان كان في المُمكنة على التّساوي خصّ باسم الضّمير المُشتبه . فقد تبيّن من هذا القول ما هي المحدودات والدّلائل والعلامات وما الفرق بينهما . لكنّ الّذي تبيّن من الاقاويل القياسيّة على الحقيقة انّما هو في كتاب القياس فانّه هنالك تبيّن ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسيّة وتبيّن في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . وامّا (المثال) فقد بيّنّا فيما تقدّم انّه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بانّه ليس يصار فيه لا من الجزئيّ الى بيان الامر الكلّيّ كما يصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلّيّ الى الجزئيّ كما قد يصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بيّنّا بالكلّيّ الّذي اثبتناه بالاستقراء جزئيّا آخر غير الجزئيات الّتي اثبتها الكلّيّ باستقرائها ويوافقه في انّه يصير من جزئيّ الى جزئيّ لاجتماعهما في امر كلّيّ . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئيّ الى الكلّيّ ثمّ من الكلّيّ الى جزئيّ آخر فانّا في هذا الفعل قد صرنا من جزئيّ الى جزئيّ يتوسّط الكلّي كالحال في المثال فانّ المثال انّما يصير فيه من جزئيّ الى جزئيّ

لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ إِذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى ٱلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلِاسْتِقْرَاءِ أَعْنِي إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِٱلْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأَقْوَامٍ يَعُدُّهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإِنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ: إِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنَ ٱلْأَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هَا هُنَا. وَسَبَبُ غُمُوضِهِ أَنَّ ٱلضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ ٱلْقِيَاسَاتُ ٱلْجَدَلِيَّةُ لَكِنَّ مِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي فِي ٱلصَّنَائِعِ مِثْلَ ٱلضَّمَائِرِ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ وَٱلْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ. وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي تَخُصُّ ٱلْخَطَابَةَ مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ. وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ أَتَمَّ فِعْلًا وَأَنْفَذُ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ. وَمِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ ٱلْخُطَبَاءُ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي هِيَ فُصُولُ ٱلضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَةٌ



الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاوَّل

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ اِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ اَيْضًا فِي اِصْطِلَاحِ اَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اَيْ تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَاِنْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْاِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ اِظْهَارُ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلْأَنْظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلْآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

أَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنِيٌّ لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْأَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْإِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلْجَدَلِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَنَاظِرَيْنِ فِي ٱلْاسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلْاحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاًّ وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِٱسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ. إِلَّا انَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَينَكَ وَبَيْنَ شَخصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرادَتُكَ فِيهَا اَنْ تَظْهِرَ الْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ ٱلبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ ٱلْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تَفْرِقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ ٱلبَحْثُ فِي ٱلْخَلَاءِ احَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَلَإِ وَٱسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ ٱلسُّؤَالَ عَنِ ٱلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ ٱلْقَلْبِ اِلَى ٱلطَّبِيبِ وَٱلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَٱلْعُلَمَاءَ ٱلْأَطِبَّاءُ. وَٱلْعَالِمَ ٱلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْعَالِمَ ٱلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلْمُعَالَجَةِ وَٱلصَّلَاحِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ ٱلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ ٱلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ ٱلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ. اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ. وَاَمَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ

فهو ان يكون مسترشدا عالما عاقلا فهما لا يكون مغلوب الحسد والغضب ومحب الجاه والمال والشهوة ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان وبحث. وهذا يقبل العلاج فيجوز ان تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك اجابته • اما الذي لا يقبل العلاج احدهم من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه والحسد لا يقبل العلاج لانه من العلة المزمنة فكلما تجيبه باحسن الجواب وافصحه واوضحه لا يزيد له ذلك الا غيظا وحسدا فالطريق ان لا تشتغل بجوابه:

كل العداوة قد ترجى ازالتها   الا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي لك ان تعرض عنه وتتركه مع مرضه قال: فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة والدنيا واتبع هواه فتردى والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع عمله كما جاء في الحديث: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. والثاني ان يكون علة من الحماقة وهو ايضا كالحسود لا يقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام: (١) اني ما عجزت عن احياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الاحمق وذلك رجل يشتغل لطلب العلم زمانا قليلا ويتعلم شيئا من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته لا يعلم ولا يفهم على العالم الكبير

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد . ولا نعلم عمّن رواه الغزالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيّ وَٱلشَّرْعِيّ . وَهٰذَا ٱلْاَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ اَنَّ مَا اَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ اَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَاِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي اَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْاَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلْاِسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاِشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ اَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ اُمِرْنَا اَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : اِيَّاكَ اَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ اِنْقِرَاضِ ٱلْاَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَاِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ اَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

اَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا   اَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ
اِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ   سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْاِنْصَافُ اَنَّ ٱلْجَدَلَ لِاِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْاَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْاَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : اِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَاِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ اَشْهَى اِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْاَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَاِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصِبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجَّلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ. وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِثْنَائِهِ حَتَّى إِذَا ٱطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتُهُ فَلَا شَيْءَ أَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ أَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ إِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيَظْهَرَ لَهُمْ عَجْزُهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِٱقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا. قَالَ شَارِحُ إِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشَبَّهَاتُ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: إِنَّ أَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

أمرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييزِ بينَ الشيءِ وأشباهِهِ ثمَّ إنَّها تنقسمُ إلى ما يتعلَّقُ بالألفاظِ وإلى ما يتعلَّقُ بالمعاني. (والأوَّلُ) ينقسمُ إلى ما يتعلَّقُ بالألفاظ لا من حيثُ تركُّبِها وإلى ما يتعلَّقُ بها من حيثُ تركُّبِها. والأوَّلُ) لا يخلو إمَّا أنْ يتعلَّقَ بالألفاظِ أنفسِها وهو أنْ تكونَ مختلفةَ الدلالةِ فيقعَ الاشتباهُ بينَ ما هو المرادُ وبينَ غيرِهِ. ويدخلُ فيهِ الاشتراكُ والتشابُهُ والمجازُ والاستعارةُ وما يجري مجراها ويسمَّى جميعًا بالاشتراكِ اللفظيِّ. وإمَّا أنْ يتعلَّقَ بأحوالِ الألفاظِ وهي إمَّا أحوالٌ ذاتيَّةٌ داخلةٌ في صِيَغِ الألفاظِ قبلَ تحصُّلِها كالاشتباهِ في اللفظِ المختارِ بسببِ التصريفِ إذا كانَ بمعنى الفاعلِ أو المفعولِ. وإمَّا أحوالٌ عارضةٌ لها بعدَ تحصُّلِها كالاشتباهِ بسببِ الإعجامِ والإعرابِ. (والمتعلِّقةُ بالتركيبِ) تنقسمُ إلى ما يتعلَّقُ الاشتباهُ فيهِ بنفسِ التركيبِ كما يُقالُ: كلُّ ما يتصوَّرُهُ العاقلُ فهو كما يتصوَّرُهُ. فإنَّ لفظَ (هو) يعودُ تارةً إلى المعقولِ وتارةً أخرى إلى العاقلِ وإلى ما يتعلَّقُ بوجودِهِ وعدمِهِ أي بوجودِ التركيبِ وعدمِهِ. وهذا الآخرُ ينقسمُ إلى ما لا يكونُ التركيبُ فيهِ موجودًا فيظنُّ معدومًا ويسمَّى تفصيلَ المركَّبِ. وإلى عكسِهِ ويسمَّى تركيبَ المفصَّلِ وأمَّا (المتعلِّقةُ بالمعاني) فلا بدَّ أنْ تتعلَّقَ بالتأليفِ بينَ المعاني إذِ الأفرادُ لا يتصوَّرُ فيها غلطٌ لو لم يقعْ في تأليفِها بنحوٍ ما ولا يخلو من أنْ تتعلَّقَ بتأليفٍ يقعُ بينَ القضايا أو بتأليفٍ يقعُ في قضيَّةٍ واحدةٍ. والواقعةُ بينَ القضايا إمَّا قياسيٌّ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ اِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ . وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ اِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تَكْذِبُ ٱلْكُبْرَى . وَاِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَأُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِٱعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ اِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِاَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ . وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لٰكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ . فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بِٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ ٱلْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ ٱلْآخَرِ وَيُسَمَّى إِيهَامَ ٱلْعَكْسِ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَٱللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْمُطْلَقِ بِحُكْمِ ٱلْمُقَيَّدِ بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَٱلرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلَ ٱلْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذَ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ كَمَنْ رَأَى ٱلْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ ٱلتَّوَهُّمُ وَٱلتَّكْلِيفُ فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ ٱلْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ ٱلْكَاتِبُ إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ ٱلشُّرُوطِ أَوِ ٱلْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ ٱلْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ ٱعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلْبَسَائِطِ هِيَ ٱلِاشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ ٱللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ ٱلذَّاتِيَّةِ وَفِي أَحْوَالِهِ ٱلْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلتَّرْكِيبِ وَهِيَ ٱلَّتِي فِي نَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ ٱلْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ ٱلْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضَايَا ٱلْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ ٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْمُصَادَرَةُ عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيهَامُ ٱلْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ وَسُوءُ ٱعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجَبِّنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ وَٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنَازِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ. وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ . وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِيعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا ... أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَضْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شَيْبَةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَٱللهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ . فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ . فَقَالَ : أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا . قَالَ : نَعَمْ فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ . فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ . (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ : صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا . فَحَمِدَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ : رَفَعَهَا ٱللهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ . فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفُّ إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعَصَا. (ثُمَّ اَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ): فَكَانَ هٰذَا اَوْجَدَهُ ٱللّٰهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَاَنْشَأَهُ اَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ اِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللّٰهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ: فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى يَدَيْهِ اَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا اَقَامَ اَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شَبَّةَ وَاَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ اَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ: يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَاَيْتُ كَٱلْيَوْمِ اَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا اَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا اَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا اَبَلَّ رِيقًا وَلَا اَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا اَحْسَنَ طَرِيقًا اِلَّا اَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْاَحَبِّ وَاَيْمُ ٱللّٰهِ اِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ اَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ: مَا اُعْجِبُ بِكِتَابِ اَحَدٍ كَاِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسِمِ بْنِ عِيسَى فَاِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ اِلَى ٱلْاِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي اَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: اِيَّاكُمْ اَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَاِنَّهُ اَشَدُّ وَاَعْجَبُ وَاَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ اِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكُتَّابِهِ: اَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا اِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

ٱلْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمِرَ ٱلْغَسَّانِي يَقُولُ لِكَاتِبِهِ ٱلْمُرَقِّشِ : إِذَا نَزَعَ بِكَ ٱلْكَلَامُ إِلَى ٱبْتِدَاءِ مَعْنًى غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَإِنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ أَلْفَاظَكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ تَمْذُقَ بِهِ نَفَرَتِ ٱلْقُلُوبُ عَنْ وَعْيِهَا وَمَلَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱسْتَثْقَلَتْهُ ٱلرُّوَاةُ. وَكَانَ بَزُرْجُمِهْرُ يَقُولُ : إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَٱجْعَلْ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ ٱلْمَدْحَ مِنَ ٱلْهِجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا ٱسْتَأْنَفْتَ ٱلْقَوْلَ وَأَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ ٱللَّفْظِ. وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ ٱلْحَرَّانِيِّ : مَا مَنْزِلَةُ ٱلْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ : أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَنِكًا بِٱلتَّجْرِبَةِ سَالِمًا بِحَلَالِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَحَرَامِهَا بِٱلدُّهُورِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِٱلْمُلُوكِ فِي سِيَرِهَا وَأَيَّامِهَا مَعَ بَرَاعَةِ ٱللَّفْظِ وَحُسْنِ ٱلنَّسَقِ وَتَأْلِيفِ ٱلْأَوْصَالِ بِمُشَاكَلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَبِشَرْحِ ٱلْمَعْنَى حَتَّى يُنْصَبَ صُوَرُهَا. وَبِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ مُجِيدٌ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا ٱلتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحَفُّظِي عَنِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ فِي كِتَابِهِ وَٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَحْلُولِ إِلَى ٱلْمَعْقُودِ وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةَ ٱلْكِتَابِ وَجَمَالُهُ إِيقَاعُ ٱلْفَصْلِ وَقْعَهُ وَشَحْذُ ٱلْفِكْرِ وَإِجَالَتُهَا فِي لُطْفِ ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَعْقُودِ إِلَى ٱلْمَحْلُولِ. (قُلْنَا) : وَمَعْنَى ٱلْمَعْقُودِ وَٱلْمَحْلُولِ هَا هُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا ٱبْتَدَأْتَ مُخَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ إِلَى مَوْضِعِ ٱلتَّخَلُّصِ مِمَّا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ ٱلسُّتُورَ وَأَبَنْتَ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَنْزُوعِ إِلَيْهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مُحَاوَلاً مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أُنْظُرْ سَدَّدَ ٱللّٰهُ رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدَرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدْتَ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَأَعْلَمْ أَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَأَرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ أَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمَحْلُولِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَبِئْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي أَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا أَنَّ أَخْيَرَ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوكَلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرُمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنُّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: اِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلِٱسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

لَمْ يُخطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا
خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ مِنْ مَعْدِنِهِ. وَاِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَاِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ
يُسْلِمُكَ اِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ
اَلْفَاظَكَ وَمَنْ اَذَاعَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ
ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا اَنْ تَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا
وَيُهَجِّنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اِلَى اَنْ تَكُونَ اَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ
اَنْ تَلْتَمِسَ اِظْهَارَهَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ بِمُلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا. فَكُنْ
فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ فَاَوَّلُ ذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ
فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا اِمَّا عِنْدَ
ٱلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدتَّ وَاِمَّا عِنْدَ ٱلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ
اَرَدتَّ. وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَتَّضِعُ اَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ. وَاِنَّمَا
مَدَارُ ٱلْاَمْرِ عَلَى ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ
ٱلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ. وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ
وَٱلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ
وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقَدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ
ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْاَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا
تَجْفُو عَنِ ٱلْاَكْفَاءِ فَاَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ. فَقَالَ لَهُ اِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ
جُعِلْتُ فِدَاكَ اَنَا اَحْوَجُ اِلَى تَعَلُّمِي هٰذَا ٱلْكَلَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ اسْعَدَكَ ٱللهُ إِكْثَارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمِ ٱلْقَوْلَ فِي اقْسَامِهَا وَانْوَاعِهَا وَانَّهَا الْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْاَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَامَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلْاَلْفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلْمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ انَّ ٱلْمُنْتَاَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلْاَعْشَى: (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْاَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا انَّهَا الْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَاحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلْمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِاقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ بِاعْذَبِ ٱلْاَلْفَاظِ وَاحَقِّهَا عَلَى ٱلْاَسْمَاعِ وَاقْرَبِهَا إِلَى ٱلْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ انَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى امَّةٍ دُونَ امَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلْأَلْسِنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوَجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ أَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلْأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْأَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ أُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَأَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَأَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي أَنْ يُحَاضِرَ أَهْلَ ٱلْمُرُوَّاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَنِّئًا أَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ: فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلْأَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ أَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

ٱلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ ٱلشَّيْخُ: وَأَكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهَا ٱلِٱخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ. وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَٰلِكَ فَقَالَ: لَمْحَةٌ دَالَّةٌ. وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلِٱخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لَحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ: (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ). وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ: (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ). فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى: فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا أَوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ. . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلِٱخْتِصَارِ. وَمِنْ هٰذَا أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَمَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو: كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٍّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ. وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى أَيِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ. وَسَأَذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ . فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ : إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا . وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ
ٱلْانْسَانَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ ٱلْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ
فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ ٱلصَّوَابَ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى
ٱلْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ . وَقَالَ مُطَّلِبُ ٱلْعُرَائِيُّ لِلْإِسْكَنْدَرِ :
اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ ٱلْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاَحْكَامُكَ تَجْعَلُ ٱلصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ
لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) فَٱنْظُرِ ٱلْآنَ كَمْ
مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ يَعْنِي اَنَّ حُسْنَ خُلْقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ
اِلَى صَدَاقَتِهِ وَاَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَاَنَّ
عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي ٱلدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِاَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي
مُسْتَقْبَلِ ٱلْعُصُورِ . وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ اِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ
اَفْصَحَ وَاَحْسَنَ . وَلَمَّا شَاوَرَ اَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ ٱلْفُرْسِ فِي اَمْرِهِ
قَالَ لَهُ : قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَٱعْمَلْ مَا يَجْمُلُ . فَجَمَعَ لَهُ
بِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلثَّلَاثِ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلسِّيَاسَةِ . وَفِي مَا يُرْوَى اَنَّ
بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا اَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ : حِمَارٌ عَلَيْهِ
لِجَامُ ذَهَبٍ . وَنَظَرَ اِلَى شَابٍّ اَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ . فَقَالَ : هٰذَا حَجَرٌ
قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ . وَقَالَ اَرِسْطَاطَالِيسُ : اَلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْعَقْلِ اَقْبَحُ مِنَ
ٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْمَالِ . وَقَالَ : غَيْرُ مُحِبِّ ٱلشَّرَفِ هُوَ ٱلَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ
بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْعِلْمِ . وَقَالَ سُقْرَاطُ : اَللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . وَرَاَى
سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ : هٰذَا مُسْتَحِثٌّ . يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ اِلَى
ٱلْمَوْتِ . وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ : قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ . فَقَالَ : اَلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنٌّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّما فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمُ ٱلَّذِينَ اَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى اَنَّ اَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ اَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ اَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَاَخَّرَهُ: اَنْتَ مَاشٍ وَٱلْاَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَاَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ اَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى اَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْاُمَمِ. وَاِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ اَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ اَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ اَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ اَفْلَاطُونُ يُبْغِضُ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: اِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَاَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ اَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ اَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ اَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْاَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى اَفْوَاهِ اَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى اَبُو حَاتِمٍ عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ اَوْصَلَ اِلَى اَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ اَرْبَعَةَ عَشَرَ اَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْاُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْاَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ اَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ اَهْلُ زَمَانِهِ قُحِطُوا فَرَفَعُوا اِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صَاحِبِ بَيْتِ ٱلْمَالِ : إِذَا قَحِطَ ٱلْمَطَرُ جَادَتْ سَحَائِبُ ٱلْمَلِكِ . فَفَرَّقَ فِيهِمْ مَا فَاتَهُمْ وَمَانَهُمْ . وَشُكِيَ مِثْلُ ذٰلِكَ إِلَى قُبَاذَ بْنِ كِسْرَى فَوَقَّعَ لِيَكُنْ بِنَا ٱلْبِرُّ لِلرَّعِيَّةِ وَٱلْاحْسَانُ إِلَيْهِمْ فَإِنِّي وَإِيَّاهُمْ فِي نَفْعِ ذٰلِكَ مُسْتَوُونَ . وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَاذَ بِمَدْحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَأَسْهَبَ وَذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ وَكَانَ ٱلْمَدْحُ فِي رُقْعَةٍ . فَوَقَّعَ فِيهَا كِسْرَى إِنِّي لِلْمَدْحِ مُسْتَصْغِرٌ لِعِلْمِي بِأَشْيَاءَ قَدْ مُدِحَتْ وَكَانَتْ بِأَنْ تُذَمَّ مَحْقُوقَةً . وَوَقَّعَ أَنُوشِرْوَانُ فِي رُقْعَةِ مُتَنَصِّحٍ : ثَمَرَاتُ ٱلنَّصَائِحِ شُكْرُ ٱلْجَوَارِحِ وَخَرَجَ ٱلتَّوْقِيعُ إِلَى وَزِيرٍ لَهُ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : قَدْ جَمَعْنَا إِلَى شُكْرِ ٱللِّسَانِ شُكْرَ ٱلْيَدِ وَهُوَ ٱلْبَذْلُ . وَوَقَّعَ كِسْرَى فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا ٱلنُّقْلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ خَسِيسَةً فَٱخْتَارَ صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَّعَ فِي رُقْعَتِهِ . أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومِ مَنَازِلِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى ٱللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ جَمْعُ ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ فَقَدْ سُئِلَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ فَقِيلَ لَهُ : مَا لَنَا نَرَى فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْقَلِيلِ عِدَّةَ مَعَانٍ . فَقَالَ : إِنَّ كَلَامَ ٱلْعَرَبِ أَوْعِيَةٌ وَٱلْمَعَانِي أَمْتِعَةٌ فَرُبَّمَا جُعِلَتْ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلْأَمْتِعَةِ فِي وِعَاءٍ وَاحِدٍ ... وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرِ ٱبْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيعَ دَهْرِهِ بَلَاغَةً فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَجُودَةَ لِسَانٍ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ أَنَّهُ قَالَ : اذَا كَانَ ٱلْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا . وَحَكَى ٱلْمُفَضَّلُ قَالَ : قُلْتُ

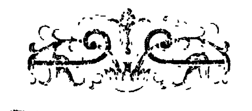
لِأَعْرَابِي: مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يُحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يُحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالَبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَأَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ.

اَلرَّابِعَةُ : رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . اَلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . اَلسَّادِسَةُ : ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهْجُرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : اَلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . اَلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ . اَلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ . عُوجُ ٱللَّبَانِ طَوْعُ ٱلْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : اَلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ . دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ . اَلْبَادِئُ أَظْلَمُ . حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . اَلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ . اَلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . اِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْش يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَجِيُّ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: أَعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِانْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ أَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ إِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ طَاهِرٍ : ٱلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَإِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّوْلِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اَجْنَاسُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اَصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ اِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ اِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ اِمَّا مُنَاظِرٌ وَاِمَّا حَاكِمٌ وَاِمَّا ٱلْمَقْصُودُ اِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبِلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَاِمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ اِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبِلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هٰذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَمْدَحُونَ وَيَذُمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِّهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسهِ)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ •
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ
وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ • مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا
أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ
أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
ٱلْجَوْرِ • وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ
كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا
عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا
ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا • مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي
ٱلشَّرِيعَةِ • وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ
ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِم أَلَّا يَمْتَعِضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ
فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ • وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ
يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ
يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ • فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ
وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ • وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَارِكُ فِيهَا وَتُشَارِكُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدَّمَاتٌ وَمُقَدَّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبِلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ نُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدَّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرَ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلْإِعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسهِ)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِيَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاَخْتِيَارِ وَٱلْاِرَادَةِ • وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ اوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَافْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَامَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلْاِتِّفَاقِ وَاقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَت هِيَ فِي ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْاِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَنْظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ • وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نُرَوِّي.فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْاِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْاُمُورُ ٱلْاِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ • وَذٰلِكَ اَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ • وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

ٱلْمنطِق وَمِنْ عِلم ٱلسِّياسَةِ ٱلْخُلقيةِ وَانَّ فِيهَا اشْيَاءَ جَدلِيَّةً اوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشيَاءِ ٱلْجَدلِيَّةِ وَايضًا سُوفِسْطَائِيَّةً اوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ . وَٱلْاَشياءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ اِنَّمَا تَكُونُ اجزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى اُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْاَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ اَعنِي ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْخُلقِيَّةُ اِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ اَحدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْجَدلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ اِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ اَنَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْاُولَى لِلْاِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ اَنَّهَا اِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ اِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلَ مَوَاضِعِ ٱلْاِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ اِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ اَيضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا اَعْنِي اَنَّهَا اِنَّمَا تَنظُرُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْاِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنْهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى اَهْلِ مَدِينَةٍ بِأَسْرِهِمْ وَمِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ اَهْلِ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

من ٱلكتاب نفسهِ)

(قَالَ) : فَاَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلعِظَامِ مِنْ أُمُورِ ٱلْمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ اَنْ تَكُونَ خَمْسَةً . اَحَدُهَا ٱلإِشَارَةُ بِٱلْعُدَّةِ ٱلْمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَمْوَالِ لِلْمَدِينَةِ . وَٱلثَّانِي ٱلإِشَارَةُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ . وَٱلثَّالِثُ ٱلإِشَارَةُ بِحِفْظِ ٱلْبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلرَّابِعُ ٱلإِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْبَلَدِ وَيَخْرُجُ عَنْهُ . وَٱلْخَامِسُ ٱلإِشَارَةُ بِٱلْتِزَامِ ٱلسُّنَنِ . فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلْعُدَّةِ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ اَحَدُهَا اَنْ يَعْرِفَ غَلَّاتِ ٱلْمَدِينَةِ مَا هِيَ اَعْنِي هَلْ هِيَ نَبَاتٌ اَوْ حَيَوَانٌ اَوْ مَعْدِنٌ اَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ اَوِ ٱثْنَانِ مِنْهَا كَيْمَا اِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا لِلْعُدَّةِ شَيْءٌ اَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا . وَٱلثَّانِي اَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ اَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ كُلِّهَا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَعْرِفَ اَصْنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْمَدِينَةِ فَاِنْ كَانَ فِيهَا اِنْسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ اَشَارَ بِاَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ مِقْدَارَ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمْكِنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ اَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدِّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْاِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِرَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حَالَ ٱلْاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ ٱلْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفْضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفْضَتْ اِلَى ٱلظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفْظُ ٱلْبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ اِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ ٱلْحِفْظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

اعني التي المنفعة بحفظها اكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه ان يشير بالحفظ وان يكون خبيرًا بالبلاد التي يشير بحفظها . واما الاشارة بالقوت وسائر الاشياء الضرورية التي تحتاجها المدينة فانه يحتاج المشير فيه ان يعرف مقدارها وكم يكفي المدينة منها وكم الحاضر الموجود في المدينة من ذلك وهل ادخل الكافي من ذلك في المدينة واحرز ام لم يدخل . وما الاشياء التي ينبغي ان تخرج من المدينة وهو الفاضل عن اهل المدينة . وما الاشياء التي ينبغي ان تدخل وهو ما قصر عن الضروري لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فانه قد يحتاج المرء ان يحفظ اهل مدينته لامرين : احدهما لمكان ذوي الفضائل والثاني لمكان ذوي المال الذين من اجل ذوي الفضائل . والحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى ان يكون عارفًا بجميع هذه الانواع الخمسة عند حفظه لها

(قال) واما النظر في وضع السنن والاشارة بها فليس بيسير في امر المدن فان المدن انما تسلم ويلتئم وجودها بالسنن ولذلك قد ينبغي لواضع السنن ان يعرف كم اصناف السياسات واي سنة تنفع في سياسة سياسة واي سنة لا تنفع واي ناس تصلح بهم سنة سنة وسياسة سياسة واي ناس لا تصلح بهم وان يكون يعرف الاشياء التي يخاف ان يدخل منها الفساد على المدينة . وذلك اما من الاضداد من خارج واما من اهل المدينة فان سائر المدن ما عدا المدينة الفاضلة قد تفسد من قبل السنن

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلْقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلِاعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَوْجِهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْأَعْدَاء وَٱلْأَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاء يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْأَعْدَاء وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْإِخْبَارِ عَنِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طبيعته بل انما عند كل واحد منهم وجوده فقط. واذا سئل واحد واحد منهم عما يدل عليه اسمه اجاب فيه بجواب غير الجواب الذي يجيب فيه الآخر. وانما يؤثره الجميع لمكان هذا الانفعال الموجود له بالطبع عند الجميع. وهذا الخير في الجملة هو صلاح الحال واجزاء صلاح الحال. ولذلك فقد ينبغي ان نفصل اولا ما هو صلاح الحال بقول عام ثم نفصل اجزاءه ونخبر عن اضدادها وعن الاشياء التي يكون فيها الاذن والمنع وهي النافعة في صلاح الحال او الانفع فيه او الضارة فيه او الاضر فيه فان بهذا يتم لنا القول في الاشياء التي منها تلتئم الاقاويل المشورية المستعملة مع جميع الناس

(قال) والذين تكلموا في هذه الصناعة فلم يتكلموا من هذه الاشياء الا فيما يجري مجرى الامور الكلية مثل انهم قالوا: ينبغي للخطيب ان يعظم الشيء الصغير اذا اراد تفخيمه ويصغر الشيء الكبير اذا اراد تهوينه. وينبغي له ان لا يأذن في الاشياء التي تفسد صلاح الحال وفي الاشياء التي تعوق عن صلاح الحال او تتجاوز صلاح الحال الى ضده. ولم يقولوا ما هي الاشياء التي بها يعظم الشيء او يصغر ولا ما هي الاشياء التي توجب اختلال صلاح الحال او تعوقه او تتجاوزه الى ضده

(قال) فاما صلاح الحال فهو حسن الفعل مع فضيلة وطول من العمر وحياة لذيذة مع السلامة والسعة في المال وحسن الحال

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْإِخْوَانِ
وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ
مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ
وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ
وَٱلْبِرِّ فَإِنَّهُ هٰكَذَا أَحْرَى أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مُكْتَفِيًا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ
ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ
وَٱلْإِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ
ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً
فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَأَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْأُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يَكُونوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ أَوْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ أَنَّهُ يَكُونُ أَتَمَّ إِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ . وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ أَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْأَحْرَارُ مِنْ أُولَئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ إِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ أَبَدًا أَشْيَاخٌ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يَخْلُفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ . فَإِنَّهُ إِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَإِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَإِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْأَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْأَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ . أَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَبِأَرْبَعٍ إِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ أَنْ تَكُونَ خِلْقَتُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ . وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ . وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ أَجْسَامِهِمْ . وَأَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْأَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْإِنَاثِ . وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْإِنَاثِ أَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ . أَمَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحمِ ٱلطَّبِيعيِ لَا ٱللَّونُ وَٱلجَمالُ . وَامَّا فِي ٱلنَّفسِ فَثَلَاثٌ
ٱلعِفافُ وَحُبُّ ٱلأُلفَةِ وَحُبُّ ٱلكَدِّ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلفَضائِلِ يَكمُلُ
ٱلمَنزِلُ وَهٰذِهِ ٱلفَضائِلُ ٱلَّتي قُلنا سَبِيلُها ان تُوجَدَ فِي ٱلنِّساءِ كُلِّهِنَّ
ٱللَّاتي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلعُمومِ وَفِي ٱلرِّجالِ كُلِّهِمْ عَلَى
ٱلعُمومِ وَفِي اوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً إِذْ كَانَ ٱلوَلَدُ بِهِ ٱلصَقَ .
وَقَدْ يَنبَغي لِلخَطِيبِ انْ يَنظُرَ هَلِ ٱلفَضائِلُ ٱلَّتي هُوَ مِنها هِيَ هٰذِهِ
ٱلفَضائِلُ عِندَهُمْ اعني فِي اوْلَادِهِمْ امْ لَيسَ هِيَ هٰذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا
مِنَ ٱلأُمَمِ يُرَبُّونَ اوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلإِناثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ
وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ ارِسطُو إِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصفُ مِنْ صَلاحِ ٱلحَالِ
بِٱلأَبناءِ . فَامَّا اجزاءُ ٱليَسارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنانِيرِ وَٱلأَرَضِينَ وَٱلعَقارِ
وَٱلأَثاثِ وَٱلأَمتِعَةِ وَٱلمَواشِي وَجَمِيعِ ٱلأَشياءِ ٱلمُختَلِفَةِ فِي ٱلنَّوعِ
وَٱلجِنسِ. وَكُلُّ ذٰلِكَ إِذا كانَتْ هٰذِهِ ٱلأَشياءُ فِي حِفظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ
وَانْ يَكُونَ فِيها مُتَمَتِّعًا اي مُلتَذًّا لَا حَافِظًا لَها فَقَطْ او مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلأُمورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱليَسارِ وَٱلفاعِلَةِ لَهُ ٱلأَشجارُ
ٱلمُثمِرَةُ وَٱلغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجنَى
بِغَيرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلحِفظِ وَٱلإِحرازِ لِلمالِ هُوَ انْ يَكُونَ
فِي ٱلمَوضِعِ ٱلَّذي لَا يُتَعَذَّرُ مِنهُ عَلَيهِ وَانْ يَكُونَ بِٱلحَالِ ٱلَّتي
يُمكِنُ انْ يَنتَفِعَ بِها مِثلَ انْ إِذا كانَتْ ارضًا أَلَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَإِن
كانَ فَرَسًا أَلَّا يَكُونَ جَمُوحًا . وَحَدُّ ٱلحُرِّيَّةِ فِي ٱلمالِ انْ يَكُونَ
إِلَيهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلمالِ بِٱلإِعطاءِ وَٱلبَيعِ وَٱلشِّراءِ وَامَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلمالِ

فَهوَ ٱستِعمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشتَرَطَ فِي ٱلغِنَى هٰذَا ٱلشَّرطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ ٱلغِنَى فِي ٱستِعمَالِ ٱلمَالِ أَحرَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱقتِنَائِهِ لِأَنَّ ٱلاِقتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلغِنَى وَأَمَّا ٱلاِستِعمَالُ فَهُوَ ٱلغِنَى بِعَينِهِ وَأَمَّا حُسنُ ٱلفِعلِ عَلَى ٱلرَّأيِ ٱلصَّوَابِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقتَنِي ٱلشَّيءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلأَكثَرُ لَا مَحَالَةَ أَوِ ٱلأَخيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلكَيسِ وَٱلفِطنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلمُعتَنِي بِحُسنِ ٱلفِعلِ وَإِكرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلعَدلِ وَٱلحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلأَفعَالُ لَيسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ. وَلَيسَ يُكرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَٱلَّذِينَ يَستَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ أَعنِي ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلإِكرَامِ. وَٱلعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَستَوجِبُ ٱلكَرَامَةَ هِيَ ٱلعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيسَ ٱلتَّخلِيصُ مِنهَا بِهَيِّنٍ أَوْ إِفَادَتُهُمُ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي لَيسَ إِفَادَتُهَا بِٱلسَّهلِ. وَهٰذِهِ ٱلأَفعَالُ ٱلجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونَ عَنِ ٱلغِنَى أَوِ ٱلسُّلطَانِ أَوْ مَا أَشبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلإِنسَانِ بِهِ ٱلقُدرَةُ عَلَى أَمثَالِ هٰذِهِ ٱلأَفعَالِ وَقَدْ يُكرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلإِضَافَةِ إِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَإِلَى تِلكَ ٱلحَالِ . فَكَانَ ٱلكَرَامَةَ عَلَى ٱلأَشيَاءِ ٱليَسِيرَةِ هِيَ بِٱلعَرَضِ أَيْ مِنْ جِهَةٍ مَا عَرَضَ لِتِلكَ ٱلأَشيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلإِضَافَةِ

اِلَى ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ اَوِ ٱلْحَالِ . وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ . فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ اَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْاَمْوَاتَ . وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ اِلَى اَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ . فَاِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ اَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ اِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَاِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَاِمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْاَمْرَيْنِ . وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوَّقَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونُوا عَرِيِّينَ مِنَ ٱلْاَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَاَنْ يَسْتَعْمِلُوا اَبْدَانَهُمْ لِاَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبِطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ اَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ اَوْ مِنْ اَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْحُسْنُ فَاِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِٱخْتِلَافِ اَصْنَافِ ٱلْاَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ اَنْ تَكُونَ اَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمُ ٱلْآلَامَ وَٱلْاِنْفِعَالَ اَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْاَذَى وَاَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ اَنْ يُنْظَرَ اِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَرَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ نَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِرَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أَمرًا مُكتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمكَنَ أَنْ يَبلُغَ بِٱلسُّرعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبلُغْ بِٱلسُّرعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِندَهُمْ بِٱسْمٍ مُشتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذقِ بِٱستِعمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِندَهُمْ ذَا ٱلْخَمسِ ٱللُّعَبِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ تَعَجَّلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنْسَانِ قَبلَ أَنْ يَبلُغَ مُنتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحزَانِ وَلَا أَنْ أُمهِلَ إِلَى مُنتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمرِ مَعَ ٱلْأَمرَاضِ لٰكِنْ يُشبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمرِ غَيرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَومًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

أَعْمَارُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مِسْقَامُونَ. وَتَصْحِيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَٱلْخَطِيبُ إِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذٰلِكَ بِٱلشَّيْءِ ٱلظَّاهِرِ

(قَالَ) وَأَمَّا كَثْرَةُ ٱلْخُلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْإِخْوَانِ فَذٰلِكَ أَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ إِذَا حُدَّ مَا هُوَ ٱلْخَلِيلُ وَٱلصَّاحِبُ. وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ ٱلْآخَرَ لَا ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلْخُلَّةُ وَٱلصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ ٱلْحَالِ بِٱلْإِخْوَانِ ٱلْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا صَلَاحُ ٱلْجَدِّ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْإِتِّفَاقُ لِإِنْسَانٍ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ ٱلْخَيْرِ لَهُ. وَذٰلِكَ إِمَّا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَإِمَّا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ. وَعِلَّةُ ٱلْإِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ ٱلصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونُ ٱلطَّبِيعَةَ وَهُوَ ٱلْأَكْثَرُ. فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ ٱلْإِتِّفَاقِ ٱلطَّبِيعِيِّ أَنْ يُولَدَ ٱلْإِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ ٱلْأُمُورَ ٱلْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ. فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ ٱلْإِتِّفَاقَ ٱلطَّبِيعِيَّ مِثْلَ أَنْ يُولَدَ صَحِيحًا. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْإِتِّفَاقَ ٱلصِّنَاعِيَّ مِثْلَ أَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ. وَأَمَّا ٱلْجَمَالُ وَٱلضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا ٱلْإِتِّفَاقُ ٱلصِّنَاعِيُّ وَٱلطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ ٱلْأَمْرِ أَنَّ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي سَبَبُهَا ٱلْجَدُّ ٱلَّذِي هُوَ حُسْنُ ٱلْإِتِّفَاقِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا. وَقَدْ يَكُونُ

ٱلْجَدُّ عِلَّةً لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِٱلْإِضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَةِ إِلَى ٱلْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ خَيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقْفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدُهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجَدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَأَوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاءٍ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بِمَعُونَةِ ٱللهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ أَنْ نَذْكُرَ أَلفَاظَ ارِسْطَاطَالِيسَ ٱقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ إِذًا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِ غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَأَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ إِذًا بِٱلْإِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ أَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا إِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلْإِسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلإِرَادَةِ. فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ أَيْضًا. وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطِلِقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلُ فِي ٱلْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلِٱخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ. وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسهِ)

اَلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: اَلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِٱلْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَٱلشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ ٱلَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجْعَلُ مَنِ ٱقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعَقْلُ . وَٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْإِرَادِيَّةِ . وَٱلَّتِي هِيَ بِٱلْقُوَّةِ مِثْلُ ٱلتَّهَيُّؤِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَٱلنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَٱلْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ . فَٱلَّتِي هِيَ تَامَّةٌ كَٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ فَكَٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا ٱحْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ . وَأَمَّا ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ ٱلْبَتَّةَ فَكَٱلْعِلَاجِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَٱلرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهُمَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتِ ٱلَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ ٱلْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَٱلْقُوَى وَٱلْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالْاحوال وَمِنها كَالْافعال وَمِنها كَالْغايات وَمِنهـا كَالْمواد وَمِنها كَالآلات. ووُجودُ الخـيرات في المقولات كلّها يكونُ على هذا المثال امّا في الجوهر اعني ما ليس بعرض فالله تبارك وتعـالى هو الخيرُ الاوّلُ فانّ جميع الاشياء تتحرّكُ نحوه بالشوق اليه ولانّ مآل الخيرات الالهيّة من البقاء والسرمديّة والتمام منهُ. وامّا في الكميّة فالعددُ المعتدلُ والمقدارُ المعتدلُ وامّا في الكيفيّـة فكاللذّات. وامّا في الاضافة فكالصدقات والرئاسات. وامّا في الاين والمتى فكالمكان المعتدل والزمان الانيق البهج. وامّا في الوضع فكالقعود والاضطجاع والاتكاء الموافق. وامّا في الملك فكالاموال والمنافع. وامّا في الانفعـال فكالسماع الطيّب وسائر المحسوسات المؤثّرة. وامّا في الفعل فمثل نفاذ الامر ورواج الفعل. (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها معقولاتٌ ومنها محسوساتٌ

(وامّا السعادةُ) فقد قلنا انّها خـيرٌ ما وهي تمامُ الخيرات وغاياتها والتمامُ هو الذي اذا بلغنا اليه لم نحتج معـهُ الى شيء آخر فلذلك نقولُ انّ السعادة هي افضلُ الخيرات ولـكنّا نحتاج في هذا التمام الذي هو الغايةُ القصوى الى سعادات اُخَر وهي التي في البـدن والتي خارج البدن. (وارسطاطاليس) يقولُ انّهُ يعسُرُ على الانسان ان يفعلَ الافعالَ الشريفـة بلا مادّة مثل اتّساع اليـد وكثرة الاصدقاء وجودة البخت

(وامّا اقسامُ) السعادة على مذهب هذا الحكيم فهي خمسةٌ

أقسام : (أحدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج أعني أن يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . (والثاني) في الثروة والأعوان وأشباههما حتى يتسع لأن يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويؤاسي منه أهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه . (والثالث) أن تحسن أحدوثته في الناس وينشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف . (والرابع) أن يكون منجحا في الأمور وذلك إذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه . (والخامس) أن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه بريئا من الخطإ والزلل جيد المشورة في الآراء . فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك .

(وأما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وأفلاطون وأشباههم فإنهم أجمعوا على أن الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) . وأجمعوا على أن هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ . وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَٰلِكَ ٱضْطُرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ . وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يَحْقِرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهٰذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذٰلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهَيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلَصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا بِنَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعَدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى انَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى انَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى انَّهَا فِي ٱلتَّمْكِينِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى انَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى انَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى انَّ هٰذِهِ كُلَّهَا اذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ اعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ احَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ انْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: انَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى اذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَاقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي انْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ اسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل . وينبغي ان يعلم انه ليس يحتاج في صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات الابدية التي هي الحكمة فقط . فاذا ما دام الانسان انسانا فليس تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية . فالسعيد اذا من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها . واما ان يكون في رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سابقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها . واي امرىء لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا اعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها وهو مع ذلك موثر لضدها يستعمل قواه الشريفة في

ٱلْأُمورِ ٱلدَّنِيئةِ وَتلكَ مُحصِّلةٌ لِكَمالاتِها ٱلَّتي تَخُصُّها. فَإذا ٱلأَنعامُ إذا مُنِعتِ ٱلخَيراتِ ٱلإِنسيَّةَ حُرِمَتْ جِوارَ ٱلأَرواحِ ٱلطَّيِّبةِ وَدُخولَ ٱلجَنَّةِ ٱلَّتي وُعِدَ بِها ٱلمُتَّقونَ فَهِيَ مَعـذورةٌ وَٱلإِنسانُ غَيرُ مَعذورٍ. وَمَثَلُ ٱلأَوَّلِ مَثَلُ ٱلأَعمى إذا جارَ عَنِ ٱلطَّريقِ فَتَرَدَّى في بِئرٍ فَهُوَ مَرحومٌ غَيرُ مَلومٍ. وَمَثَلُ ٱلثَّاني مَثَلُ بَصيرٍ يَجورُ عَلى بَصيرةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى في ٱلبِئرِ فَهُوَ مَمقوتٌ مَلومٌ. وَإذ قَد تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعيدَ لا مَحالةَ في إحدى ٱلمَرتَبَتَينِ ٱللَّتَينِ ذَكَرناهُما فَقَد تَبَيَّنَ أَيضًا أَنَّ أَحَدَهُما ناقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلآخَرِ وَأَنَّ ٱلأَنقَصَ مِنهُما لَيسَ يَخـلو وَلا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلآلامِ وَٱلحَسَراتِ لِأَجلِ خَدائِعِ ٱلطَّبيعةِ وَٱلزَّخارِفِ ٱلحِسِّيَّـةِ ٱلَّتي تَعتَرِضُهُ فيما يُلابِسُهُ وَتَعوقُهُ عَمَّا يُلاحِظُهُ وَتَمنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فيها عَلى ما يَنبَغي وَتَشغَلُهُ بِما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلأُمورِ ٱلجِسمانيَّةِ فَصاحِبُ هٰذِهِ ٱلمَرتَبةِ غَيرُ كامِلٍ عَلى ٱلإِطلاقِ وَلا سَعيدٍ تامّ. وَأَنَّ صاحِبَ ٱلمَرتَبةِ ٱلأُخرى هُوَ ٱلسَّعيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذي تَوَفَّرَ حَظُّـهُ مِنَ ٱلحِـكمةِ فَهُوَ مُقيمٌ بِروحانيَّتِهِ بَينَ ٱلمَلَإِ ٱلأَعلى يَستَمِدُّ مِنهُم لَطائِفَ ٱلحِـكمةِ وَيَستَنيرُ بِٱلنُّورِ ٱلإِلٰهيِّ وَيَستَزيدُ مِن فَضائِلِهِ بِحَسَبِ عِنايَتِهِ بِها وَقِلَّةِ عَوائِقِهِ عَنها وَلِذٰلِكَ يَـكونُ أَبَدًا خالِيًا مِنَ ٱلآلامِ وَٱلحَسَراتِ ٱلَّتي لا يَخلو صاحِبُ ٱلمَرتَبةِ ٱلأُولى مِنها. وَيَـكونُ مَسرورًا أَبَدًا بِذاتِـهِ مُغتَبِطًا بِحالِهِ وَبِما يَحصُلُ لَهُ دائِمًا مِن فَيضِ نورِ ٱلأَوَّلِ فَلَيسَ يُسَرُّ إلَّا بِتِلكَ ٱلأَحوالِ وَلا يَغتَبِطُ إلَّا بِتِلكَ ٱلمَحاسِنِ وَلا يَهَشُّ إلَّا لِإِظهـارِ تِلكَ ٱلحِـكمةِ بَينَ أَهلِها وَلا يَرتاحُ إلَّا لِمَن ناسَبَـهُ أَو قارَبَهُ

وَاَحبَّ ٱلاقتِباسَ مِنهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلمَرتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيها فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ ٱلسَّعادَاتِ وَاَقصاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لا يُبالِي بِفِراقِ ٱلاَحبَابِ مِنْ اَهلِ ٱلدُّنيا وَلَا يَتحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيها وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنيا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلخَارِجَةِ عَنهُ كُلَّهَا كَلاًّ عَلَيهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحتَاجُ اِلَيها لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَستَطِيعُ ٱلانحِلَالَ عَنهُ اِلَّا عِندَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشتَاقُ اِلَى صُحبَةِ اَشكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلاَروَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلمَلَائِكَةِ ٱلمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ ٱللهُ مِنهُ وَلَا يَختَارُ اِلَّا مَا قَرَّبَ اِلَيهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحزَنُ عَلَى فَقدِ مَحبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوتِ مَطلُوبٍ . اِلَّا اَنَّ ٱلمَرتَبَةَ ٱلاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيها مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلمَرتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلحَكِيمُ ٱلكَلَامَ اِلَيهِمَا وَٱختَارَ ٱلمَرتَبَةَ ٱلاَخِيرَةَ مِنهُمَا . .

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصنَا اَمرَ هَاتَينِ ٱلمَنزِلَتَينِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلقُصوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحدَاهُمَا بِٱلاِضَافَةِ اِلَينَا اُولَى وَٱلاُخرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلمُحَالِ اَنْ نَسلُكَ اِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيرِ اَنْ نَمُرَّ بِٱلاُولَى . . ثُمَّ اَعلَمْ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعضِ ٱلقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرنَاهَا دُونَ بَعضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصلَاحِهَا فِي وَقتٍ دُونَ وَقتٍ لَمْ تَحصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اجلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعتقِدُ فِيهِ ٱلإِنسانُ هٰذا ٱلِاعتِقادَ موجودٌ لهُ فقدِ ٱكتفى بِهِ ونالَ حاجتَهُ ولَم يَبقَ لهُ تشوُّقٌ إلى شيءٍ اصلًا. وٱلاشياءُ ٱلنَّافِعةُ في هٰذا ٱلخيرِ هِيَ بِٱلجُملةِ اربعةُ اجناسٍ ٱلاشياءُ ٱلفاعِلةُ وٱلاشياءُ ٱلحافِظةُ لهُ وما يلزمُ ٱلفاعِلةَ وذٰلكَ انَّ لازِمَ ٱلشيءِ يُعدُّ معَ ٱلشيءِ. وكذٰلكَ ايضًا لازِمُ ٱلمُفسِدِ لِلشَّيءِ يُعدُّ معَ ٱلمُفسِدِ. ولازِمُ ضِدِّ ٱلفاعِلِ معَ ضِدِّ ٱلفاعِلِ في ٱلاشياءِ ٱلَّتي يَنهي عنها ولُزومُ ٱلغايَةِ لِلفاعِلِ رُبَّما كانَ معًا مِثلَ ما يلزمُ ٱلمدحَ اقتِناءُ ٱلاشياءِ ٱلممدوحةِ ورُبَّما كانَ مُتأخِّرًا مِثلَ ٱلعِلمِ ٱلَّذي يَتبعُ ٱلتَّعلُّمَ بِآخِرةٍ. وٱلاشياءُ ٱلفاعِلةُ ثلاثةُ اصنافٍ إمَّا بِٱلذَّاتِ وإمَّا بِٱلعَرَضِ. وٱلَّذي بِٱلذَّاتِ ٱثنانِ إمَّا قريبٌ مِثلُ فِعلِ ٱلغِذاءِ لِلصِّحَّةِ. وإمَّا بعيدٌ مِثلُ ٱلطَّبيبِ. وٱلَّذي بِٱلعَرَضِ مِثلُ فِعلِ ٱلتَّعَبِ في ٱلرِّياضةِ لِلصِّحَّةِ. وإذا كانَ واجِبًا انْ تكونَ اصنافُ ٱلاشياءِ ٱلفاعِلةِ لِلخيرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلاصنافَ ٱلثَّلاثةَ فَبِٱضطِرارٍ انْ تكونَ ٱلامورُ ٱلنَّافِعةُ في ٱلخيرِ بعضُها خيرٌ في ذاتِها مِثلُ نفعِ ٱلغِذاءِ في ٱلصِّحَّةِ وبعضُها شرٌّ في ذاتِها وخيرٌ ما بِحَسَبِ نفعِها في ٱلخيرِ مِثلُ شُربِ ٱلدَّواءِ لِلصِّحَّةِ. وٱلشُّرورُ ٱلَّتي تنفعُ في ٱلخيرِ هِيَ نافِعةٌ على وجهينِ احدُهما انْ يُستفادَ بِها خيرٌ هُوَ اعظمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِن ٱستِعمالِها مِثلَ ٱستِفادةِ ٱلصِّحَّةِ عَنْ شُربِ ٱلدَّواءِ ومِثلُ ٱلمشقَّةِ ٱليسيرةِ في ٱستِفادةِ ٱلمالِ ٱلكثيرِ. ومِنها ما تُنالُ بِهِ ٱلسَّلامةُ مِن شرٍّ هُوَ اعظمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذي يُنالُ مِنها مِثلُ ما ينالُ رُكَّابُ ٱلبحرِ مِنَ ٱلسَّلامةِ إذا طرحوا ٱمتِعتَهُمْ فإنَّ

طَرْحَ أَمتِعَتِهِمْ شَرٌّ لٰكِنْ تُسْتَفَادُ مِنْهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ وَهُوَ ٱلْعَطَبُ. وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ يُسَمِّيهَا أَرِسْطُو فَوَائِدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيهَا ٱنْتِقَالًا وَيَعْنِي بِذٰلِكَ أَنَّهَا ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ أَخَفُّ شَرًّا مِنْهُ أَوِ ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ

(قَالَ) وَٱلْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ أَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي ٱلْخَيْرِ فَإِنَّ ٱلْمُقْتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو ٱلْأَحْوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيْفَ هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُفَصِّلَ ٱلْأَمْرَ فِي ذٰلِكَ. وَٱللَّذَاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلْحَيَوَانِ يَشْتَاقُ إِلَيْهَا. وَٱلْأُمُورُ ٱللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا ٱلْمُلْتَذُّ حَسَنَ ٱلْحَالِ وَقَدْ يَسْتَبِينُ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي ٱلْخَيْرِ وَأَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي ٱلْغَايَاتِ. وَذٰلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا عِنْدَ بَعْضٍ أَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلْعَفَافَ وَكِبَرَ ٱلنَّفْسِ وَٱلنُّبْلَ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ وَٱلْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتُ اَشْيَاءَ اُخَرَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ ٱللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ ٱلسِّيرَةِ ٱلْحَسَنَةِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلْيَسَارِ اَنَّهُ خَيْرٌ اِذْ كَانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ ٱلْاَمْرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱللَّذَّةُ وَٱلْآخَرُ حُسْنُ ٱلسِّيرَةِ وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِكَثْرَةِ ٱلْاِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِاَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ اِذَا كَانَتِ ٱلصَّدَاقَةُ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ اَجْلِ ٱلْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا اَنْ تَكُونَ ٱلْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ اَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَاِنَّ ٱلْاِخْوَانَ ٱلَّذِينَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ ٱلْكَرَامَةَ وَٱلتَّمْجِيدَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ فَاِنَّ ٱلْاَقْوَالَ وَٱلْاَفْعَالَ ٱلَّتِي تُفْعَلُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ وَٱلتَّمْجِيدُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ .

(قَالَ) وَمِنَ ٱلنَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا ٱلْمَلَكَاتُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْاِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِاَشْيَاءَ حَسَنَةٍ مِثْلِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْحِفْظِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ ٱلْحَرَكَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْكَمَالَاتُ مِثْلُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَكَذٰلِكَ ٱلسِّيَرُ ٱلْمَحْمُودَةُ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَعَ اَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَاِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِاَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَٱلْبُرْءُ اَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ اَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا اَنَّهَا خَيْرٌ فَذٰلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ وَٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَاَمَّا اِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْ اَضْدَادِ هٰذِهِ اَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا اَنَّهَا شَرٌّ فَذٰلِكَ يَكُونُ فِي هٰذِهِ

ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ أَعْنِي بِبَيَانٍ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ فَنَالَ مِنْهُمُ ٱلْعَدُوُّ وَلٰكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَيْرُ كَمَا أَنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً أَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلْأَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلَيْهِمَا وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ أَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا ٱفْتَرَقَا فِي إِثْرِ هٰذِهِ ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلِٱفْتِرَاقِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ ٱلنَّافِعُ

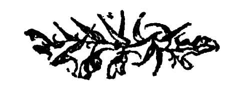
نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ أَيْضًا. وَأَمَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لِكِلَيْهِمَا فَكَثِيرًا مَا يُوجِبُ صَدَاقَةَ ٱلْعَدُوِّ. وَذٰلِكَ إِذَا كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي نُزُولِ ٱلشَّرِّ ٱلْوَارِدِ بِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضُلَ أَحَدُهُمَا فِي ذٰلِكَ صَاحِبَهُ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ كَانَ ٱتِّفَاقُهُمْ بِهٰذَا ٱلسَّبَبِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ إِنَّ ٱلشَّرَّ قَدْ يَجْمَعُ ٱلنَّاسَ فَهٰذَا أَيْضًا أَحَدُ مَا يَكُونُ بِهِ ٱلشَّرُّ نَافِعًا أَعْنِي أَنْ يَكُونَ ٱلضَّرُّ ٱلنَّازِلُ بِٱلْإِنْسَانِ نَازِلًا بِعَدُوِّهِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ يُوجِبُ صَدَاقَةَ ٱلْعَدُوِّ وَحِينَئِذٍ يَهْوَى ٱلْعَدُوُّ ٱلْوَارِدُ ضِدَّ مَا يَهْوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَعَادِيَيْنِ ٱللَّذَيْنِ وَرَدَ عَلَيْهِمَا ٱلْعَدُوُّ مِنْ خَارِجٍ. وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَعَادِيَيْنِ يَهْوَى صَدَاقَةَ صَاحِبِهِ لِمَكَانِ تَعَاوُنِهِمَا عَلَى ٱلْعَدُوِّ ٱلْوَارِدِ عَلَيْهِمَا مِنْ خَارِجٍ. وَٱلْعَدُوُّ ٱلْوَارِدُ يَهْوَى بَقَاءَ عَدَاوَتِهِمَا عَلَى حَالِهَا أَوْ تَأَكُّدِهَا. وَأَرِسْطُو يَقُولُ: وَلِذٰلِكَ كَثِيرًا مَا تُنْفَقُ ٱلنَّفَقَاتُ ٱلْعَظِيمَةُ وَتُفْعَلُ ٱلْأَفْعَالُ ٱلْكَثِيرَةُ فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي يُدْفَعُ بِهِ ٱلشَّرُّ ٱلْعَظِيمُ وَإِنَّمَا تَطِيبُ ٱلنَّفْسُ بِٱلنَّفَقَاتِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ لِظُهُورِ مَا يَلْزَمُ عَنْهَا مِنَ ٱلْغَايَةِ ٱلْمَطْلُوبَةِ وَقُرْبِهَا حَتَّى كَأَنَّهَا إِذَا وُجِدَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وُجِدَتِ ٱلْغَايَةُ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلشَّرُّ ٱلْمُفْرِطُ ٱلنَّازِلُ بِٱلْعَدُوِّ أَيْضًا سَبَبًا لِلِٱعْتِرَافِ بِٱلْخَيْرِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي نَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وَلَوْلَاهُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ ٱلْعَدُوُّ. مِثْلَ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ ٱلْيُونَانِيِّينَ أَنَّهُ ٱشْتَدَّتْ مُحَارَبَتُهُمْ لَهُ وَحَصْرُهُمْ إِيَّاهُ سِنِينَ كَثِيرَةً وَقَتَلُوا فِي ذٰلِكَ ٱلْحِصَارِ ٱبْنَهُ فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ جُثَّتَهُ لِيُحْرِقَهَا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي مَوْتَاهُمْ فَفَعَلُوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَاَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَاَهْلِ مَدِينَتِهِ . فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا ٱلشَّيْءِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ اُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْاِصْطِنَاعَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ ٱلْمُصْطَنِعُ اِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ اَنْ يَخْتَارَ ٱلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا عَظِيمَ ٱلْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ ٱلنَّاسِ لَهُ اَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ ٱلْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ ٱلْاِنْسَانِ ٱلشَّرَّ وَبِاَصْدِقَائِهِ ٱلْخَيْرَ . مِثْلَ مَا عَرَضَ لِاُومِيرُوشَ مَعَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَاَعْدَائِهِمْ فَاِنَّهُ قَصَدَ اِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِٱلْمَدْحِ وَاَصْدِقَاءَهُ مِنَ ٱلْيُونَانِيِّينَ . وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِٱلْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ ٱلْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ ٱلنِّعْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ ٱلتَّعْظِيمِ حَتَّى ٱعْتَقَدُوا فِيهِ اَنَّهُ كَانَ رَجُلًا اِلٰهِيًّا وَاَنَّهُ كَانَ ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْاَوَّلَ لِجَمِيعِ ٱلْيُونَانِيِّينَ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَفِعْلُ ٱلشَّرِّ بِٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْخَيْرِ بِٱلْاَصْدِقَاءِ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ . وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ اَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى اَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ ٱلْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ اَوْ يَسِيرًا وَاَنْ يُظَنَّ اَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِاَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ اِلَى ذٰلِكَ فَاِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ ٱلْفِعْلُ مُدَاوِمًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفَاعِلِ وَهُوَ ٱلسَّهْلُ عَلَيْهِ لِاَنَّ

ٱلْأَفعالَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجلِ خَوفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنْقَطَعَتْ وَإِذَا ٱنقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْـهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا. وَأَمَّا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْـهِ إِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضُلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالَطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِأَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْـهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيـهِ أَنَّهُ لَيْسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَاتَهُ بِٱلْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذٰلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذٰلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءَ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِئِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجِّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذٰلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمٌ مَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِئِ وَٱلْمُكَافِئِ أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلِاصْطِنَاعَ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ انَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ اَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ اَجْلِ انَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ اَحْيَانًا بِانَّ ٱلْاَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي انَّ هَا هُنَا شَيْئًا هُوَ اَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ اَنْ يُبَيِّنَ بِهَا اَنَّ ٱلْاَمْرَ اَنْفَعُ وَاَفْضَلُ. فَمِنْهَا اَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْاَشْيَاءِ فَهُوَ اَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْبَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْثَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ ٱكْثَرَ اَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ اَجْلِ غَيْرِهِ وَاَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَاَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا اَوْ اَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جَمَعَ هٰـذِهِ ٱلصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ . وَأَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلعَظِيمُ ٱلْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ فَٱلعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْأَوَّلِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْإِنَاثِ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلعَظِيمِ ٱلْآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلعَظِيمِ إِلَى ٱلعَظِيمِ . ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلْآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ . فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلفَقْرُ . فَٱلفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلْأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْــلُ لُزُومِ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْأَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلْإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَائِهِ أَوْ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبَنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ. وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا أَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَأَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ أَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَأَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَيْضًا أَنَّ ٱلْغَايَةَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ مَا تُجْعَلُ ٱلْغَايَةُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ

فُلَانًا اَوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ اِلَى اَلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُـلَانٍ اَلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَـكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ اَلْفِعْـلُ اِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذٰلِكَ اَلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ اَلضَّرَرُ . وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ اَلْفَاعِلُ فِيـهِ اَعْظَمَ مِنَ اَلْغَايَةِ قَوْلُ اَلْقَائِلِ : فُلَانٌ اَحَقُّ بِاَلشُّـكْرِ عَلَى هٰذَا اَلْفِعْـلِ مِنْ فُلَانٍ لِاَنَّ فُلَانًا هُوَ اَلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ اَلْفِعْـلِ وَلَوْلَا اِشَارَتُهُ لَمْ يَـكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ اَلْفِعْلَ اَلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا اَلْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ اَلْغَايَةِ اِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَـكَانِ اَلْغَايَةِ . وَاَيْضًا فَاِنَّ اَلَّذِي وُجُودُهُ اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ اَلذَّهَبِ وَاَلْحَدِيدِ غَـيْرَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَلذَّهَبُ اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ اَلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ . وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِـكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ اِنَّ اَلْمَاءَ خَيْرٌ لِـكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ . وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَـلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ . وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ اِلَيْـهِ . وَاَيْضًا اَلشَّيْءُ اَلَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ . وَاَيْضًا اَلَّذِي عَدَمُهُ اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ اَلْاَعْظَمِ وَاَلْاَقَلِّ عِظَمُ اَلْمُقَايَسَةِ فِي اَلْخَـيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي اَلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ . وَاَيْضًا فَاِنَّ اَلْغَايَاتِ وَاَلْاَشْيَاءَ اَلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ اَلْاَفْعَالُ اِذَا كَانَتِ اَلْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَاِنَّ اَلْاُمُورَ اَلْمُتَقَـدِّمَةَ لِتِلْكَ اَلْغَايَاتِ اَلْاَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضا فان ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فان افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لان نسبة الافعال الى مباديها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فانه ان كان البصر آثر من الشم فان الابصار آثر من الشم وهكذا يوجد الامر في جميع الافعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتية فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فان العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض له عظيما وفي الاعراض الموجودة في الشيء اعني ان الشيء الاعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضا ان يحب الانسان صاحب المال افضل من ان يحب المال لان حب الانسان افضل من حب المال. وايضا فان الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك ان شهوة العلوم فاضلة وشهوة الاكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الاكل والشرب. وايضا عكس هذا وهو ان ما هو افضل فشهوته افضل مثل ان الحكمة افضل من الصحة فشهوتها افضل من شهوة الصحة. وايضا فان العلوم التي هي احسن وافضل فافعالها خير وافضل. مثال ذلك انه لما كانت العلوم العلمية افضل من العملية كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو ان التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك ان الوقوف على الحق لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنائعُ ٱلعِلمِيَّةُ أَفضَلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّةِ وَإِنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلمَوضِعَانِ مُتَلازِمَينِ لِأَنَّ نِسبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسبَةُ فِعلِهَا إِلَى فِعلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلجُمهُورِ أَوِ ٱلأَكثَرُ أَوْ ذَوُو ٱلأَلبَابِ وَٱلأَخيَارُ ٱلصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيرٌ وَأَفضَلُ فَهُوَ أَفضَلُ بِإِطلَاقٍ وَفِي نَفسِهِ إِذَا كَانَ حُكمُهُمْ فِي ٱلأَشيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱستَفَادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ ذَوِي ٱلأَلبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِندَ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيرِ مِنْ أَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلخَيرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ أَعنِي ٱللَّبِيبَةَ فَإِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيرٌ مُطلَقٌ أَوْ خَيرٌ أَفضَلُ مِنْ خَيرٍ مِثلُ عِلمِهِمْ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلأَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ إِيَّاهَا. وَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيرٌ بِٱلإِضَافَةِ إِلَى إِنسَانٍ مَا مِثلُ مَنْ يَرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيهِ أَفضَلُ مِنْ أَنْ يَجُورَ هُوَ فَإِنَّ هٰذَا ٱلخَيرَ لَا يُدرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يَرَى هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدلِ وَٱلفَضلِ. وَأَيضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيرَاتِ مَعَهُ أَكثَرُ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمهُورِ يَبتَدِرُونَ إِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ أَجلِ ٱللَّذَّةِ نَفسِهَا لَا مِنْ أَجلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَعْنِي مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ اَبْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَاَدْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ اَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ اَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ ٱعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةٌ اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

الجمهور وما اختاره ايضا كثير من الناس آثر مما يختاره القليل من الناس فان الخير كما قيل هو الذي يشتاق اليه الكل . وما اختاره ايضا الحكام الاول اعني الذين لا يأخذون الاحكام من غيرهم وهم الشراع افضل مما لم يختاروه . وما اختاره ايضا الذين يتلقون الاحكام من هؤلاء افضل مما ليس يختاره هؤلاء . والذين يتلقون الاحكام من الحكام الاول وهم الذين تؤخذ عنهم اصول الاحكام صنفان اما سامع فقط مبلغ واما سامع عالم اي قادر على ان يستنبط من تلك الاصول احكاما ما لم يصرح بها الحكام الاول . وهؤلاء صنفان اما مسلطون من قبل الحكام الاول وهم القضاة وما اشبههم واما غير مسلطين وهم الفقهاء . ومن هذه الاشياء ما لجميع اصناف المتلقين من الحكام الاول ان يقولوا فيها . وهو ما سمعوه او ما شاهدوه من الحاكم الاول ومنها ما يختص بذوي العلم منهم وهو القول في الاشياء التي تستنبط عن الاحكام الاول التي صرح بها الحاكم الاول وليس للسامعين دون علم ان يقولوا في هذه الاشياء . واما الذي يخص الحكام الاول القول فيه فهي الاصول التي تتنزل منزلة المبادئ لسائر ما يحكم به السامعون ذوو العلم اعني المسلطين والفقهاء وهي التي يسميها ارسطو الامور العظمى . والفضلاء الابرار الذين جرت العادة ان يأخذ عنهم الجميع او الاكثر فحكمهم افضل فان عدم الاخذ قد يخيل هوانا ونقصا في المرء الفاضل البر

وَقِلَّةَ قَبُولِ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ ٱلْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَبْرَارُ ٱلْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي ٱلْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ . وَذٰلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ٱلْمَرْضِيُّ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو ٱلتَّمْيِيزِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْفَاضِلِينَ ٱلَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرَ وَهُمْ أَقَلُّ وُجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ ٱلْكَرَامَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ ٱلَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتِ ٱلْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِٱلْفَضَائِلِ . فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ ٱلَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلصِّنْفِ ٱلْمَقْبُولِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلنَّاسِ جِدًّا جِدًّا ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ ٱلْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَاةَ ٱلْفَضِيلَةِ كَانَ ٱلْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ . فَضِيلَتُهُ . وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ نَالَتْهُمُ ٱلْمَضَرَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلشَّقَاءُ ٱلْكَبِيرُ لِمَكَانِ ٱلْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُو ٱلْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَٱلَّذِينَ نَالَهُمُ ٱلضَّرَرُ

ٱلْكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلْفَضْلِ هُمْ أَيْضًا أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ أَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْأَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ . هٰذَا أَعْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْإِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْأَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْأَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَلُ كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً إِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا أَوْ فِي ٱلْأَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ وُجُودِ ٱلْإِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا أَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ . مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ أَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْلَ

ٱلصَّحِيحِ. وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا. فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ. وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ. وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَامَّةً. وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ.

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ. وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْاِنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ . وَأَيضًا مَا أُوثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَالْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤْثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤْثَرٌ لِلْغَيْرِ . وَأَيضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَالنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ أَعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغَدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِٱللَّذَّةِ أَعْنِي أَنَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِٱللَّذَّةِ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلْإِنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِأَمْرِئٍ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهِلَهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ . وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أَحْرَى أَنْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَالضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قالَ) وَالكَلامُ فِي هذهِ الأشياءِ كُلِّها هاهُنا لَيسَ هُوَ عَلى جِهةِ التَّصحيحِ وَإِنَّما الكَلامُ فِيها بِالقَدرِ الَّذي يَحتاجُ إِلَيهِ الخَطيبُ مِنْ ذلِكَ وَيَجِبُ لِلخَطيبِ أَبدًا مَتى أَتى بِالنَّتائجِ مِنْ أَمثالِ هذهِ المُقدَّماتِ أَنْ يُرْفِدَها بِالمِثالاتِ المَأخوذةِ مِنَ النَّاسِ الَّذينَ فَعلُوا تِلكَ الأفاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ النَّفعُ أَوِ الضَّررُ فَلِذلِكَ ما يَجِبُ لِلخَطيبِ أَنْ يَكُونَ حافِظًا لِلقَصصِ وَالأَخبارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسهِ)

(قالَ) فَهذهِ هِيَ الأَشياءُ الَّتي يُثبَتُ بِها أَنَّ الشَّيءَ أَنفعُ أَو أَضرُّ. وَأَمَّا الأَشياءُ الَّتي يَكُونُ بِها الإِذنُ وَالمَنعُ فَقَدْ قِيلَ فِيها قَبلَ هذا بِما فِيهِ كِفايةٌ. لكِنْ أَهَمُّ وَأَعظَمُ ما فِيها هُوَ القَولُ فِي الأَشياءِ الَّتي بِها يَقدِرُ عَلى جُودةِ الإِقناعِ فِي السُّنَنِ وَالإِشارةِ بِالسُّنَنِ الَّتي لا يُوجَدُ أَنفعَ مِنها. وَلِذلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَستَقصِيَ القَولَ فِيها هاهُنا فَنَقُولُ: إِنَّ الإِشارةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعةِ وَالإِقناعَ التَّامَّ فِيها يَتأَتَّى بِمَعرِفةِ أَصنافِ السِّياساتِ وَالأَخلاقِ وَالسُّنَنِ الَّتي تَخُصُّ سِياسةً سِياسةً. وَذلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ واحِدةٍ مِنَ السِّياساتِ سُنَنًا نافِعةً فِيها وَهِيَ السُّنَنُ الَّتي بِها

يَكُونُ خلاصُ تِلكَ ٱلْمَدِينَةِ وَقِوامُها. وَٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ ٱلْخَطِيرَةُ هِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلعَادِلَةُ أَعْنِي ٱلْمَوْضُوعَةَ فِي ٱلعَدْلِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا ٱلرَّئِيسُ ٱلأَوَّلُ فِي تِلكَ ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْمُسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرَّئِيسِ ٱلأَوَّلِ. وَهٰذِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ أَعْنِي ٱلسُّنَنَ ٱلعَادِلَةَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ ٱلسِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ ٱلتَّغَلُّبِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ ٱلْمَرْؤُوسَ. وَفِي سِيَاسَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلعَدْلُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُلْطَمَ ٱلرَّئِيسُ مِثْلَ ٱللَّطْمَةِ ٱلَّتِي لَطَمَهَا. وَٱلسِّيَاسَاتُ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعٌ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ وَسِيَاسَةُ ٱلْخِسَّةِ وَسِيَاسَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْكَرَامِيَّةُ. وَهٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتُ كُلُّهَا ٱلْمَقْصُودُ بِٱلسُّنَنِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْكُلُّ لَا ٱلشَّخْصُ. فَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ ٱلرِّئَاسَةُ فِيهَا بِٱلِاتِّفَاقِ وَٱلْبَخْتِ لَا عَنِ ٱسْتِئْهَالٍ إِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ. وَأَمَّا خِسَّةُ ٱلرِّئَاسَةِ فَهِيَ ٱلَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا ٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى ٱلْمَدَنِيِّينَ بِأَدَاءِ ٱلإِتَاوَةِ وَٱلتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةِ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةٌ لِلْحُمَاةِ وَٱلْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةٌ لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلأَمْرُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلأُخَرِ بَلْ عَلَى جِهَةِ أَنْ تَحْصُلَ ٱلثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ ٱلأَوَّلِ. فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلثَّرْوَةِ. وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلتَّغَلُّبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ ٱلأَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاتُهُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ ٱلإِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا جُودَةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ اهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ . وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ اهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَاهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ انْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ اوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِاسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَافْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ . وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ افْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ ابُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَامَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ انْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَالَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ . وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي انْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ. وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِٱحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلْإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا. ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلغَايَةِ لِانَّهَا إِنَّمَا تُستَنبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحلِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ مِنْ اَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ اَنحَاء ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَامَّا ٱلقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلاَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَامَّا بَعدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلجَمِيلِ وَٱلقَبِيحِ لِانَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلاَشْيَاء اَنْ نُعرَفَ ٱلاُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثبِتُ ٱلْمَرْء فَضِيلَةَ نَفْسِهِ اِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلاِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ اَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ بِٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا اَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ اَنْفُسِنَا. وَاِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمدَحُ بِهَا ٱلغَيْرُ بَلْ اِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلفَضِيلَةِ فَقَطْ

وهي الامور الراجعة الى الاختيار

(قال) ومن اجل انه يعرض كثيرًا ان يمدح الناس والروحانيون بالفضيلة وباشياء غير الفضيلة وليس يعرض هذا في مدح هؤلاء فقط بل وفي مدح الاشياء المتنفسة وغير المتنفسة. اعني انها تمدح باشياء خارجة عن الفضيلة. فقد ينبغي ان نقول ها هنا في الاشياء التي تؤخذ منها المقدمات في المدح بالفضائل وبغير الفضائل ليكون القول في ذلك عامًا فنقول: ان الجميل هو الذي يختار من اجل نفسه وهو ممدوح وخير ولذيذ من جهة انه خير. واذا كان الجميل هو هذا فبين ان الفضيلة جميلة لا محالة لانها خير وهي ممدوحة. والفضيلة هي ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير او يظن به انه خير اعني الحافظة لهذا التقدير والفاعلة له. ولذلك كانت موجدة لكل فعل يقصد به نحو غاية ما جليل القدر عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه. فاما اجزاء الفضيلة فالبر اي العدل العام والشجاعة والمروءة والعفة وكبر الهمة والحلم والسخاء واللب والحكمة. وهذه الفضائل منها ما هي فضائل في ذات الفاضل فقط ومنها ما هي فضائل من جهة انها تفعل في اناس آخرين وهذه التي تفعل في اناس آخرين تكون اعظم عند قوم منها عند آخرين وفي حال دون حال. مثال ذلك ان فضيلة الشجاعة آثر في وقت الحرب منها في وقت السلم. واما فضيلة العدل فمؤثرة في السلم والحرب

جميعًا. وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويج آثر منها عند غير المحاويج. وانما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالاقل والاكثر لان فعل كلتيهما هو في المال لكن المروءة هي فعل اكثر من فعل السخاء. فاما البر فهو فضيلة عادلة يعطي الفاضل بها لكل امرئ من الناس ما يستحق وذلك بقدر ما تأمر به السنة. والجور هو الخلق الذي يأخذ به المرء الاشياء الغريبة التي ليس له ان يأخذها في السنة. واما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالا للافعال الصالحة النافعة في الجهاد على حسب ما تأمر به السنة حتى يكون بفعاله ذلك خادمًا للسنة. واما الجبن فضد هذا. واما العفة ففضيلة يكون بها المرء في شهوات البدن على مقدار ما تأمر به السنة. والفجور ضد هذا. واما السخاء ففضيلة تفعل الجميل المشهور في المال. والدناءة ضد هذا. واما كبر الهمة ففضيلة يكون بها حسن الافعال العظيمة وصغر النفس. والنذالة ضدها. واما اللب ففضيلة العقل الذي يكون به حسن المشورة والروية مع وجود الفضائل الخلقية له التي هي من صلاح الحال. فهذا هو القول في الفضيلة واجزائها بقدر ما يحتاج اليه في هذه الصناعة. واما سائر الاشياء التي يمدح بها مما عدا الفضيلة فليس يعسر الوقوف عليها. وذلك انه معلوم ان فاعلات الفضائل مثل التأدب والارتياض بالاشياء التي بها تحصل الفضائل هي امور حسان وممدوح بها. واما الاشياء التي توجد في الفضائل انفسها اعني الاعراض التي توجد فيها. والاشياء التي توجد تابعة

الفضائل فهي التي يقال فيها الآن وهي علامات الفضائل وأعراضها اللاحقة لها. وأفعالها انما يمدح بها اذا كانت حسنة محمودة فإنّ كثيرًا من افعال الفضائل قد لا يمدح بها وكذلك كثير من الأعراض. فمثال الأفعال والأعراض التي هي محمودة افعال الشجعان في الحرب او من فعل في الحرب فعلهم وإن لم تكن لهم ملكة الشجاعة. وكذلك الأعراض التي تلحق الشجعان مما يمدح بها. ومثال الأفعال التي لا يمدح بها في وقت ما بذل المال فانه فعل من افعال السخاء لكن ربما كان ذلك الفعل على جهة التبذير. ومثال الأعراض التي لا يمدح بها انفعال المرء عن العدل وقبوله اياه وذلك ان فعل العدل ممدوح واما الانفعال عنه فليس بممدوح لانه يظن به انه مهانة وضيم. وبالجملة فافعال الفضائل انما تكون ممدوحة اذا كانت مقدرة تقدير العدل ومما يمدح بها الافعال العظيمة الشاقة التي جزاؤها الكرامة فقط. فإن الافعال التي يكون جزاؤها الكرامة خير من الافعال التي جزاؤها المال. ولذلك اذا كان فعل يجازى عليه بالأمرين جميعا ففعله فاعل من اجل الكرامة فقط مدح به وكل ما يفعله المرء من الفضائل لا من اجل نفسه مدح به. وفعل الاشياء التي هي خيرات باطلاق كذلك مما يمدح به. والاشياء التي في طبيعتها خيرات وإن كانت ضارة للفاعل يمدح بها ايضا. مثل فعل العدل فإن العادل كثيرا ما يستضر به.

وَٱلْأَفعالُ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ ٱلْأَمْوَاتِ مَمْـدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلأَفعالَ ٱلَّتِي تَـكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا ٱلْمَرْءُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ مَنْفَعَـةَ نَفْسِهِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَـكُلُّ فِعْلٍ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْغَـيْرَ وَلَمْ يَـكُنْ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ . وَٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي يَـكُونُ إِلَى ٱلْمُحْسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمْدُوحٌ بِـهِ أَيْضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ . وَمِمَّا يَـدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَـلَ ٱلْأَفعالَ ٱلَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ ٱلْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْـلِ . وَكَذٰلِكَ نُصْرَةُ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَمَحْمَدَتُهُمْ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ . وَٱلْخَجَلُ عِنْـدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلْحَيَاءَ يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ ٱلرَّذِيلَةِ . وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ ٱلْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمْدَحُ بِهَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحِي عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا . مِثْلُ مَا حَـكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِامْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِٱلْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذٰلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا مَشْهُورًا عَرَّضَ لَهَا بِٱلْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا يَمْنَعُنِي عَنْهُ ٱلْحَيَاءُ فَحَلُمَتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْـهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنْفِعَالٌ لِأَنَّهَـا كَانَتْ تَرَى لِمَـكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لهـا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كِنَايِيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا ٱلتَّعْرِيضِ) . لٰكِنَّهَا فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ جَعَلَتْ تَمْدَحُ ٱلْفَضَائِلَ وَتَمْـدَحُ أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ . وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

اَيضًا لِقَوْلِ ذٰلِكَ وَلَا لِتَعرِيضِهِ لِعِلْمِهِمْ اَنَّ مِثْلَهَا لَا يُتَّهَمُ بِمِثْلِ هٰذَا

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلتَّعَصُّبُ لِلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُكْتَسَبُ ٱلْمَجْدَ وَٱلْمُحَامَاةُ عَنْهَا قَدْ تَجْعَلُ ٱلْمُتَعَصِّبَ لَهَا وَٱلْمُحَامِيَ عَنْهَا مِنْ اَهْلِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ اِلَّا بِمُجَاهَدَةٍ كَبِيرَةٍ لِلطَّبِيعَةِ مِثْلِ ٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَغَيْرِهِمَا. وَذٰلِكَ اِذَا صَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ بِتَرْدَادِ فِعْلِهَا وَٱلتَّعَصُّبِ لَهَا وَٱلْمُحَامَاةِ عَنْهَا كَمَا عَرَضَ لِهٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي ٱقْتَصَصْنَا ذِكْرَهَا مَعَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ. وَذٰلِكَ اَنَّ اَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالِ قَدْ يَصِيرُ بِهَا ٱلْاِنْسَانُ مِنْ اَهْلِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ اِلَّا بِمُجَاهَدَةٍ كَبِيرَةٍ

(قَالَ) وَٱلْاِنْعَامُ عَلَى ٱلْغَيْرِ اِذَا لَمْ يَسْتَفِدِ ٱلْمُنْعِمُ مِنْهُ شَيْئًا هُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَلِذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلْعَدْلُ وَٱلْبِرُّ يُمْدَحُ بِهِمَا ٱلْاِنْسَانُ مِنْ جِهَةِ اَنَّهُمَا نَافِعَانِ كَمَا يُمْدَحُ بِهِمَا مِنْ جِهَةِ مَا هُمَا جَمِيلَانِ. وَٱلْاِنْتِقَامُ اَيضًا مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَاَلَّا يُرْضَى عَنْهُمْ فِي حَالٍ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. فَاِنَّ ٱلْاِنْتِقَامَ مِنْهُمْ هُوَ جَزَاءٌ وَٱلْجَزَاءُ عَدْلٌ وَٱلْعَدْلُ جَمِيلٌ. وَمَحَبَّةُ ٱلْغَلَبَةِ اَيضًا وَمَحَبَّةُ ٱلْكَرَامَةِ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِمَا لِاَنَّهُمَا عَلَامَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَى اِيثَارِ ٱلْفَضَائِلِ لَا لِمَكَانِ ٱكْتِسَابِ مَالٍ بِهِمَا. اَمَّا مَحَبَّةُ ٱلْغَلَبَةِ فَتَدُلُّ عَلَى اِيثَارِ ٱلشَّجَاعَةِ. وَاَمَّا مَحَبَّةُ ٱلْكَرَامَةِ فَعَلَى اِيثَارِ جَمِيعِ ٱلْفَضَائِلِ وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلْاَثِيرَةُ ٱلْمُخْتَارَةُ هِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ يَقْصِدُ بِهَا مُقْتَنِيهَا اِلَى ٱكْتِسَابِ مَالٍ. لِاَنَّ ذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ إِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعْرِهِ لِأَنَّ ٱلْمُوفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ ٱلشَّعْرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِأَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِأَنْ يُوهِمَ أَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفعَالَ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وُجِدَ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ أَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمْ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمدَحُ مِنَ ٱلأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ . وَكَأَنَّهُ يَرَى هَا هُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا يَوماً عَلَى ٱلأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلآبَاءِ كَمَا قَالَ :

نفسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ . وَٱلَّذِي يُمدَحُ بِٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِيناً لَهَا وَتَفْخِيماً بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ . وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱتِّفَاقٍ وَٱلأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذٰلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَنْجَحَ ٱلإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمدَحُ ٱلنُّجْحُ فِيهَا . وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ . وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

عَلَى أَنَّهَا حَدَثَتْ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِٱلِٱتِّفَاقِ مِنْهَا أَشْيَاءُ لَيْسَ ٱلْإِنْسَانُ سَبَبَهَا لَا بِٱلذَّاتِ وَلَا بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ ٱلْحَسَبِ وَٱلْمَنْشَإِ ٱلْفَاضِلِ وَمِنْهَا أَشْيَاءُ تَعْرِضُ عَنِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ. فَأَمَّا ٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْجَيِّدَةُ ٱلَّتِي تَعْرِضُ عَنِ ٱلْأَفْعَالِ فَتُؤْخَذُ عَلَامَةً عَلَى ٱلْفَضَائِلِ. وَأَمَّا ٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ فَتُؤْخَذُ فِي تَقْرِيرِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَثْبِيتِهَا مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ: إِنَّ ٱلْخِيَارَ يُولَدُ فِي ٱلْخِيَارِ. وَفِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ ٱلْحَيَّةَ تَلِدُ ٱلْحَيَّةَ. وَٱلْأَفْعَالُ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي عَلَيْهَا يُحْمَدُ ٱلْفَاعِلُ. وَأَمَّا آثَارُ ٱلْأَفْعَالِ فَهِيَ دَلَائِلُ عَلَى ٱلْفِعْلِ وَإِنَّمَا يُمْدَحُ بِهَا إِذَا أَثْبَتْنَا مِنْهَا ٱلْفِعْلَ

(قَالَ) وَجُودَةُ ٱلْبَخْتِ ٱلَّتِي قِيلَ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّهَا ٱلسَّعَادَةُ عَلَى مَا يَرَاهُ ٱلْجُمْهُورُ هِيَ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلِٱتِّفَاقِيَّةِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَاحِدَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ وَلَيْسَتْ هِيَ وَٱلْفَضَائِلُ وَاحِدَةً بِٱلْجِنْسِ بَلْ كَمَا أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ جِنْسٌ لِلْفَضِيلَةِ أَعْنِي مُحِيطًا بِهَا كَذٰلِكَ مَا يَحْدُثُ بِٱلِٱتِّفَاقِ جِنْسٌ يُحِيطُ بِٱلسَّعَادَةِ. وَهٰذَانِ ٱلْجِنْسَانِ أَعْنِي ٱلْفَضَائِلَ وَمَا بِٱلِٱتِّفَاقِ يَدْخُلَانِ جَمِيعًا فِي بَابِ ٱلْمَدْحِ وَفِي بَابِ ٱلْمَشُورَةِ لٰكِنْ مِنْ جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ. وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي يَجِبُ أَنْ تُفْعَلَ فَقَدْ عَرَفْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ مُدِحَ بِهَا ٱلْإِنْسَانُ. وَلِذٰلِكَ إِذَا ذُكِرَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ذِكْرًا مُطْلَقًا أَمْكَنَ أَنْ تَدْخُلَ فِي ٱلْمَشُورَةِ وَفِي ٱلْمَدْحِ وَذٰلِكَ بِزِيَادَةِ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي ٱلْمَشُورَةِ أَوِ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَقُولُ ٱلْقَائِلُ

إِنَّهُ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُوجِبَ ٱلعِظَمُ وَٱلفَضلُ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلإِنسَانِ بِٱلعَرَضِ بَلْ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوِيَّتِهِ وَٱختِيَارِهِ . فَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا . فَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُم بِٱلبَختِ وَإِنَّمَا يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُم عَنْ رَوِيَّةٍ وَٱختِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ ٱلمَدحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنبَغِي أَنْ تُطلَبَ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلِاتِّفَاقِ بَلِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلمَشُورَةِ . وَٱلأَشيَاءُ ٱلِاتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمكِنُ أَنْ تُستَعمَلَ فِي ٱلمَدِيحِ تَارَةً وَفِي ٱلذَّمِّ أُخرَى . فَإِنَّ ظُنُونَ ٱلنَّاسِ فِيهَا مُختَلِفَةٌ فَإِنَّ قَومًا يَرَونَ أَنَّ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيئًا غَيرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُكتَسَبٍ لِلإِنسَانِ . وَقَومٌ يَرَونَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمدَحَ بِهَا وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ إِلٰهِيَّةٍ بِٱلَّذِي تَعرِضُ لَهُ وَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي عَنِ ٱلِاختِيَارِ فَٱلمَمدُوحُ مِنهَا يُمدَحُ بِهِ أَبَدًا وَٱلمَذمُومُ مِنهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا

(قَالَ) وَيَنبَغِي أَنْ يُستَعمَلَ فِي ٱلمَدحِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا تَعظِيمُ ٱلشَّيءِ وَتَنمِيَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيَّلَ فِي ٱلشَّيءِ أَنَّهُ بِٱلقُوَّةِ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ . وَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحدَهُ فَعَلَ هٰذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأنُهُ أَنْ يُفعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعلًا كَبِيرًا . فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ ٱلفِعلِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعسُرُ فِعلُهُ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنسَانًا

إِنْسَانًا . ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْفَاعِلُ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ مِرَارًا كَثِيرَةً فَإِنَّ فِعْلَهُ عَظِيمٌ كَمَا قِيلَ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلرَّهْطُ أَئِمَّةٌ يُقْتَدَى بِكُمْ . وَٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي يُقْتَدَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ بَلِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ . وَهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ تَدْخُلَ فِي ٱلْمَشُورَةِ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تُعَظِّمُ ٱلشَّيْءَ مِثْلُ أَنْ يُشَارَ عَلَى ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِٱلْمَمْدُوحِ ٱلْأَوَّلِ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ أَوْ يَتَشَبَّهَ بِهِ فِي ٱلْمَدْحِ أَوْ يُشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمَمْدُوحِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُنَازِعُ أَحَدٌ فِي حَمْدِهِمْ . مِثْلُ ٱلَّذِينَ يُمْدَحُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ أَوْ يُتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي ٱلْمَدْحِ . وَمِمَّا يُعَظِّمُ ٱلْمَمْدُوحِينَ أَنْ يُقَاسُوا بِٱلَّذِينَ يَفْعَلُونَ أَضْدَادَ أَفْعَالِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ أَفْعَالِهِمِ ٱلْفَاضِلَةِ

(قَالَ) وَٱلَّذِينَ شَأْنُهُمْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلْمَمْدُوحِينَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْغَايَةِ وَيُقَايِسُوا أَنْفُسَهُمْ مَعَهُمْ دَائِمًا فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يُشَبَّهُوا بِأُولَائِكَ وَأَنْ يُجْرَوْا مَجْرَاهُمْ فِي ٱلْمَدْحِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا وَصَلُوا مَرَاتِبَهُمْ . فَإِنَّ فَضَائِلَهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ . وَمُقَايَسَةُ ٱلْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مَعَ غَيْرِهِ لَا تَصِحُّ إِلَّا مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاضِلِ لِمَوْضِعِ حُبِّ ٱلْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ فَهُوَ يَرَى نَقَائِصَهُ أَقَلَّ مِنْ نَقَائِصِ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَتْ أَعْظَمَ . وَيَرَى فَضَائِلَهُ أَكْثَرَ وَإِنْ كَانَتْ أَصْغَرَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُقَايَسَةَ وَإِنَّمَا يَسْتَطِيعُهَا ٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو عَنْ سُقْرَاطَ أَنَّهُ كَانَ يُقَايِسُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَيُجْرِي ٱلْأَحْكَامَ

عَلَى أَخْلَاقِ نَفْسِهِ. بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً أَثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَٱلْمُقَايَسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَيَّدَ فِي ٱلْفَضَائِلِ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ أَعْنِي ٱلَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ أَنَّ ٱلَّذِينَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي أَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ ٱلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ تَعْظِيمَ ٱلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي ٱلْمَدْحِ. فَإِنَّ ٱلتَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَٱلتَّشْرِيفُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي إِذَا أُرِيدَ ٱلتَّعْظِيمُ بِٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ فَإِنَّ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَجْنَاسِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلثَّلَاثَةِ أَنَّ ٱلتَّعْظِيمَ وَإِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِأَجْنَاسِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ ٱلثَّلَاثَةِ فَهُوَ أَخَصُّ بِٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ. لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُمْدَحُ ٱلْإِنْسَانُ أَوْ يُذَمُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ ٱلشَّيْءِ أَخَصُّ بِٱلْمَوْجُودِ مِنْهُ بِٱلْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ أَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَلَامَاتِ وَٱلْمِثَالَاتِ فَهُوَ أَخَصُّ بِٱلْمَشُورَةِ لِأَنَّ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ عَلَى ٱلَّتِي سَتَكُونُ وَإِعْطَاءُ ٱلسَّبَبِ وَٱلْعِلَّةِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ أَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِأَنْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَأَمَّا مَعْرِفَةُ ٱلْعَدْلِ وَٱلْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِٱلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ ٱلْمَدْحِ

وَٱلذَّمَّ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ اَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ اَوِ ٱلذَّمُّ اَعْنِي اَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْاَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْاَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَاَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ اَضْدَادِهَا اِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

اِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا اِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْاِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ اِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا اُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَاِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَعَمَّهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسهِ)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَٱلثَّالِثُ فِي اوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي احَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي ايْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا انْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْذُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْاوَّلِ وَلَهُ انْ يَصِفَ ٱلثَّانِي بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا انَّ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِي فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْأَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي ايْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كَتَبْتُ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ اشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ إِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ



البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِانْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجْلٌ اِذَا كَانَ سَبِطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَصٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا اُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ اَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهَنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَنْظُومَ ٱبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ أَنْ يَتَنَزَّلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ إِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلِٱقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ إِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱلْمُرَوِّي إِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جُرَيْجٍ:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقَى مُنْضِجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِهَرَبِ إِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِبِيُّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ إِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِي إِنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلِٱنْتِجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ.

فقال: تلخيص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص والنظر في عيوب الناس عيّ ومسّ اللحية هُلك والخروج مما بُني عليه الكلام اسهاب (فقال) وسمعته يقول رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الاعراب وبهاؤها تخيير اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وانشدني بيتا في خطبة اياد

يومون باللفظ الخفي وتارة   رمي الملاحظ خيفة الرقباء

(وقال) ابن الاعرابي قلت للفضل ما الايجاز عندك قال حذف الفضول وتقريب البعيد (وتكلم) ابن السماك يوما وجارية له تسمع فلما دخل قال لها كيف سمعت كلامي قالت الى ان تفهمه من لم يفهمه ملّه من فهمه

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرّف)

قال ابن الجوزي في المنتخب: لما كانت المواعظ مندوبا اليها بقوله: فذكّر فانّ الذكرى تنفع المؤمنين وقوله لعماله تعاهدوا الناس بالتذكرة. ولانّ ادواء القلوب تفتقر الى ادوية كما تحتاج امراض البدن الى معالجة الفت في هذا

ٱلفن كُتُبًا تشتمل على اصوله وفروعه وكان ٱلسلف يقتنعون من ٱلمواعظ بٱليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ ٱلحسين بن علي وغيره مما اشرت اليه . وكذلك كانت ٱلفقهاء في قديم ٱلزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علّة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من ٱلالفاظ وٱلاسامي لا يخرج عن مرضاة ٱلاوائل ولذلك ما اخذت من ٱلعلماء ٱلمذكورين من تحسين لفظ او تسجيع وعظ ولا يخرج من قانون ٱلجواد وما ذاك الا بمثابة جمع ٱلقرآن ٱلذي ٱبتدأ به ابو بكر وثنّى به عثمان في شهر رمضان وآذن لتميم ٱلداري ان يقص ومثل هذه لا تذم لكونها ٱبتدعت اذ ليست تخارج عن ٱلاصل ٱلمشروع وقال ٱلحسن ٱلقصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض ٱلقدماء ان ٱلوعظ حبل ٱلله ٱلممدود وعهده ٱلمعهود وظله ٱلعميم وصراطه ٱلمستقيم وحجته ٱلكبرى ومحجته ٱلوسطى وهو ٱلواضح سبيله ٱلراشد دليله ٱلذي من ٱستضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضل وهوى حجة ٱلله وعهده ووعيده ووعده به يعلم ٱلجاهل ويعمل ٱلعالم ٱلعامل وينتبه ٱلساهي ويتذكر ٱللاهي بشير ٱلثواب ونذير ٱلعقاب وشفاء ٱلصدور وجلاء ٱلامور من فضائله انه يقرأ دائمًا ويكتب ويملى ولا يمل ما اهون ٱلدنيا على من جعل ٱلدين امامه وتصور ٱلموت امامه قال بعض ٱلحكماء ٱلحكمة موقظة للقلوب من سنة ٱلغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

ٱلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ ٱلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ ٱلضَّلَالَةِ
وَٱلْعِلْمُ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ ٱلْعَلِيلَةِ وَمَشْحَذٌ لِلْأَذْهَانِ ٱلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي
ٱلظُّلْمَةِ وَأُنْسٌ فِي ٱلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي ٱلْخَلْوَةِ
وَوُصْلَةٌ فِي ٱلْمَجْلِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ ٱلْمُزْرِي
بِأَهْلِ ٱلْأَحْسَابِ ٱلْمُقَصِّرِ بِذَوِي ٱلْأَلْبَابِ أَنْطَقَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَهُ
بِٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلَهُ إِيضَاحًا
لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ ٱلشُّبُهَاتِ شَرُفَ بِهِ ٱلْوَضِيعُ وَأَعَزَّ بِهِ
ٱلذَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ ٱلْمُسَوَّدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ
فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ ٱلْأَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ ٱلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى ٱلِٱبْتِذَالِ
وَيَذْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ لِلهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ. قِيلَ
لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا ٱلْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَّغَكَ ٱلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ ٱلنَّارِ
وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا
أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ
يُحْسِنِ ٱلِٱسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ ٱلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ
ٱلنَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِينَا بَكْأٌ أَيْ قِلَّةُ ٱلْكَلَامِ وَكَانُوا
يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ ٱلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا
أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ ٱلْكَلَامِ
مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ ٱلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا
أُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخْبِيرَ ٱللَّفْظِ فِي حُسْنِ ٱلْإِفْهَامِ.
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْونَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَبْتُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سِرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُسْتَحْرِجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِأَعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ. ٱقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : اَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَاَعْمَالٌ تُخَالِفُ . وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ اُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ الْمَوْعِظَةِ عَلَى السَّمْعِ وَجُنُوحَ النَّفْسِ اِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى الْاِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ اِلَّا اَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ الْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْاِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ اَنَّ الطَّرِيقَ اِلَى الْجَنَّةِ احْتِمَالُ الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ اِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ اِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) اَلْكَلِمَةُ اِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَاِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْآذَانَ . وَقَالُوا مَا اَحْسَنَ التَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ اَحْسَنُ . وَمَا اَحْسَنَ الدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ اَحْسَنُ وَمَا اَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيِّ اَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) اَيُّهَا النَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا اَنْ تَنْتَفِعُوا بِاَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ الشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَاِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِعُقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبُهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

حَفِرْ لَهَا مَاءٌ يُرِيهَا بِدَاءَةً وَاضْمَنْ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُحْفَرِ
وَارْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ وَاغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّثَبُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحْجَبَةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِاضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَّيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ. وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَورُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُصْبِحُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلأُنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلأَثَرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَٰلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَٰكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذَٰلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِٱلنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَٰكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ . فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ . وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبَ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الْأَحْوَالِ . فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا . وَإِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ . وَإِلَى ذٰلِكَ الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ . وَعَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ الْمُتَجَدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ . فَرُبَّ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ . وَهَلْ هٰذِهِ الْأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ . لَا أُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أُفَاوِضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ . إِنْ قُلْتَ هٰذِهِ الْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ . قُلْتُ لَكَ : أَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطِّ . فَغَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ . فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْأَلْفَاظِ . أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا . يَسْرُدُ الْفَاظًا حَفِظَهَا أَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا . كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ الْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ الْمُعْجِبَ وَالْمُطْرِبَ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّصْحِيفِ الْقَبِيحِ . فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدْتُ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدْتُ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ ٱقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمْعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسَبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا   اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثُّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذٰلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ. وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا. وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَشْتَغِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

إِلَى سِبَابٍ وَمُشَاتَمَةٍ وَٱحْتِقَارِ قَوْمٍ قَوْمًا وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى ٱلْقَدْحِ فِي ٱلسَّلَفِ وَصَارَ ٱلِٱخْتِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ مُنْشِئًا لِعَدَاوَةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ فَوْقَ ٱلْعَدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَدْيَانِ فَلَيْسَتْ دُونَهَا. فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ سَبَبًا لِتَجْرِيدِ ٱلسُّيُوفِ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمُ ٱلْحُكَّامُ لِإِصْلَاحِهِمْ وَكَانُوا هُمُ ٱلْأَوْلَى بِذٰلِكَ. وَهُوَ حَقُّهُمُ ٱلَّذِي مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُمَكِّنُوا مِنْهُ غَيْرَهُمْ وَصَارُوا أَحْزَابًا يَنْحَازُ كُلُّ حِزْبٍ إِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلنَّوَاحِي وَصَارَتِ ٱلْمَدَائِنُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَعَاقِلِ وَٱلْحُصُونِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُهَا تَحْتَ نَظَرِ ٱلسِّيَاسَةِ وَقَهْرِهَا وَبُدِّلَتْ سُيُوفُ ٱلْمَنَابِرِ بِقِطَعِ خَشَبٍ فِي صُورَتِهَا يَتَّكِئُ عَلَيْهَا ٱلْخُطَبَاءُ حَالَ صُعُودِهِمْ وَهُبُوطِهِمْ. وَآلَ أَمْرُ ٱلْعُلَمَاءِ إِلَى كَوْنِهِمْ طَائِفَةً مِنَ ٱلطَّوَائِفِ ٱلْمَرْبُوبَةِ ٱلْمَسُوسَةِ تَلْحَظُ حَرَكَاتِهِمْ أَرْصَادُ ٱلْحُكُومَةِ وَتَأْخُذُهُمْ عُيُونُهَا مَنْعًا لِتَعَدِّي بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَحَسْمًا لِمَادَّةِ ٱلشَّرِّ بَيْنَهُمْ. وَلَعِبَتْ بِهِمْ أَهْوَاءُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْجَائِرَةِ ٱلْجَهَلَةِ مِنَ ٱلتَّتَرِ وَٱلدَّيْلَمِ وَغَيْرِهِمْ. وَنَشَأَ مِنْ ذٰلِكَ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ مِنْهَا تَمَكُّنُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْجَهَلَةِ ٱلَّذِينَ أَمْضَوْا صُدُورَ أَعْمَارِهِمْ فِي ٱللَّهْوِ وَٱللَّعِبِ دُونَ فِكْرَةٍ فِي تَحْصِيلِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَعِيشَةِ حَتَّى دَهَمَهُمْ وَقْتُ ٱلِٱحْتِيَاجِ لِذٰلِكَ مِنَ ٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ فَصَنَّفُوا كُتُبًا مَلَؤُوهَا أَحَادِيثَ كَاذِبَةً وَحِكَايَاتٍ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ وَرَوَّجُوهَا عَلَى ٱلْعَامَّةِ وَأَكَلُوا بِهَا ٱلْخُبْزَ وَخَلَطُوا مَا لَيْسَ مِنَ ٱلدِّينِ بِهِ. فَأَيُّ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا ٱفْتِرَاقُ ٱلْعُلَمَاءِ وَإِهْمَالُهُمْ أَمْرَ ٱلرِّعَايَةِ. وَلَمْ يَزَلِ ٱلِٱخْتِلَافُ ٱلَّذِي هُوَ مَنْشَأُ تِلْكَ

ٱلْعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًا يُخْفِيهِ ٱلضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ ٱلْقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَلْ يَسُوغُ لَكَ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هٰذَا اَنْ تَقُولَ اِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ. وَاِنْ قُلْتَ اِنَّهَا ٱلْوُعَّاظُ قُلْتُ هٰذَا اَقْرَبُ فَاِنَّ ٱلْوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرْفَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ اَهْلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ اَخَذَ عَلَيْهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلْاَمْوَالِ وَاَكْثَرُهُمْ كَانَ يَأْمُّ بِهَا ٱلْقِطَعَ مِنَ ٱلْعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَجَالِسَهُمْ. فَكَانَ ٱلْوَاعِظُ اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي اَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلْمَجْلِسِ بَسَطَ مِنْدِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلٌّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفْسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِاَجْلِ ٱلْوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلْمَجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ وَبَعْضِ اَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعْضِ اَشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَادِي. وَنُمُوذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحُسَيْنِيِّ بَعْدَ ٱلْعَصْرِ فِي رَمَضَانَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَمَحْصُولُ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ هُوَ مَحْصُولُ خُطَبِ ٱلْمَنَابِرِ. وَاِنْ كَانَ بَعْضُ اَهْلِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلْعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ. فَاِنَّ اَكْثَرَهُمُ ٱلْقُصَّاصُ ٱلْجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ اَمْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يُلَفِّقَ اَحَادِيثَ يَضَعُهَا اَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ يُفْرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلْعَامَّةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلْعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ اَمْرِ ٱلْمَعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلتَّحْرِيضِ عَلَى ٱرْتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِرْسَالِ مَعَ ٱلْاَهْوَاءِ وَطَرْحِ ٱلْمُبَالَاةِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ اَسْبَابِ ٱلْمَغْفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحْمَةِ وَعِظَمِ ٱلْعَفْوِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ. لَا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلِٱنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ ٱلتَّعَارُفِ وَٱلتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ ٱلْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَٱبْتِهَاجَهُمْ بِٱلتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالِ ٱلْأَقْوِيَاءِ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا ٱلسَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلسُّوءِ وَٱلتَّمَاكُرِ بِٱسْتِلَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَقَهْرِ ٱلنُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ ٱلْأَقْوِيَاءِ ٱلضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ ٱللَّذَاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ ٱلصُّخُورِ وَأَبْوَابِ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُولِدًا فِي ٱلنَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ ٱلطِّبَاعِ ٱلَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ ٱلِٱكْتِسَابِ بِجِهَةِ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلسُّؤَالِ بِٱلضَّرَاعَةِ وَٱلتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ ٱلْمُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفَ ٱلْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمْ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ ٱلطَّبْعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةِ خُرَافَاتٍ تُخْرِجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ ٱلْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ ٱلْإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱلِٱحْتِيَاجِ وَطَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ ٱنْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانَ نِسَائِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْمَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلأَعمَالِ ٱلْمُتعِبَةِ وَٱلمحاولَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهم ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلحفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسهم وَيَضْعف يَقِينُهم وَتقسو قُلُوبهم وَيلتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفرِقُونَ بَيْنَ اَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغيرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلقَدحُ عامًا وَٱلِاحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِاعتبَارِ فِيهِ اَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ اِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ اَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَاَحرَصَهم عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَاِنَّ اَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ اعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِاَهْلِ ٱلخَلَاعَاتِ وَٱلمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

اِنَّا لا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ اِلَّا لِلعَرَبِ وَٱلفُرْسِ . فَاَمَّا ٱلهِنْدُ فَاِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ اِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا اِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَاِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَٱليُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ اَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ اَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلبلاغة وفي ٱلفرس خطباء إلا أن كلام ٱلفرس وكل معنى لهم فإنما هو عن طول فكرة وعن ٱجتهاد رأي وعن مشاورة ومعاونة وعن طول ٱلتفكر ودراسة ٱلكتب وحكاية ٱلثاني علم ٱلأول وزيادة ٱلثالث في علم ٱلثاني حتى ٱجتمعت ثمار تلك ٱلفكر عند آخرهم. وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وٱرتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا ٱستعانة وإنما هو أن يصرف أحدهم وهمه إلى ٱلكلام وإلى زجر يوم ٱلخصام أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند ٱلمقارعة او ٱلمناقلة أو عند صراع أو حرب فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة ٱلمذهب وإلى ٱلعمود ٱلذي إليه يقصد فتأتيه ٱلمعاني أرسالا وتنهال عليه ٱلألفاظ ٱمتثالا. ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحد من ولده وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون وكان ٱلكلام ٱلجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وله أقهر وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من ٱلبيان أرفع وخطاهم للكلام أجود وٱلكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ويحتاجوا إلى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره وٱحتذى على كلام من قبله فما يحفظون إلا ما علق بقلوبهم وٱلتحم بصدورهم وٱتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وإن هذا ٱلذي في أيدينا جزء منه (اه)

وممن ٱشتهر في ٱلخطابة أيضا قس بن ساعدة ٱلإيادي أسقف

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَاكِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تُكِنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذَّرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ

وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ

وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) م ... وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ

ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)

وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

---

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ ٱلْخَيْـرَ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يُحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارْ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ : يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ : لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ . وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُؤْنِقٍ . فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ . وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ . وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ . وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا . وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا . إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ . وَمَنْ مَاتَ فَاتَ . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . مَطَرٌ وَنَبَاتٌ . وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ . وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ . وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ . وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ . وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ . لَيْلٌ مَوْضُوعٌ . وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ . وَنُجُومٌ تَغُورُ . وَأَرَاضٍ تَمُورُ . وَبُحُورٌ تَمُوجُ . وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ . وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ . وَبِرٌّ وَآثَامٌ . وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ . وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ . أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ . ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ . وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ . إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا . وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا . لَيْلٌ دَاجٍ . وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ . وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ . وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ . مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ . أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا . أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا . أَقْسَمَ قُسٌّ

---

(١) ويروى : خلت

بِاللهِ قَسَمًا حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلّٰهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ(١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكَبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ ٱلْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ٱبْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: ٱلصَّلَاةُ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ ٱلْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَٱلْعَجَمِ وَٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ ٱلْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَٱلْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا ٱلنَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ ٱلدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ ٱلرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ ٱلنَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ ٱلطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْخُزَاعِيُّ:

يا طَلحَ اكرمَ مَن بِها حسبًا وَاعطاهم لتالِدْ
مِنكَ العطاء فاعطني وعليَّ مدحك في المشاهدْ

فيُقال انَّ طلحة قال لهُ: احتكِم. قال: فرسك الوَرْد وقصرك بِكذا. فقال طلحة اف لك لو سالتني على قدري اعطيتك كلَّ فرسٍ لي وكلَّ قصرٍ ولكن ابيتُ الا باهليَّتك

وذكر جعفر بن يحيى في مجلس ثمامة بن اشرس فقال: ما رايت احدًا من خلق الله كان ابسط لسانًا ولا الحن بحجته ولا اقدر على كلامٍ بنظمٍ حسنٍ والفاظٍ عذبةٍ ومنطقٍ فصيحٍ من جعفر بن يحيى كان لا يتوقف ولا يتحبس ولا يصل كلامهُ بحشوٍ من الكلام ولا يعيد لفظًا ولا معنًى ولا يخرج من فنٍّ الى غيره حتى يبلغ آخر ما فيه. وكان لا يرى شيئًا الا حكاهُ ولا يحكي شيئًا الّا كان اكثر منهُ ولا يمرُّ بذهنه شيءٌ الّا حفظهُ. وكان اذا شاء اضحك الثكلى واذهل الزاهد وخشَّن قلب العابد. قلت فكيف كانت معرفتهُ. قال: كان من اعلم الناس بالخبر الباهر والشعر النادر والمثل السائر والفصاحة التامة واللسان البسيط. قال سهل بن هارون وذكر يحيى بن خالد وابنهُ جعفرًا فقال: لو كان الكلام متصورًا درًّا ويلقيه المنطق جوهرًا لكان كلامهما والمنتقى من الفاظهما. ولقد غبرتُ معهما وادركتُ طبقة المتكلمين في ايامهما وهم يرون البلاغة لم تستكمل الا فيهما. ولم تكن مقصورةً الّا عليهما ولا انقادت الّا لهما وانهما للباب الكرم

عتق منظر وجودة مخبر وسهولة لفظ وجزالة منطق ونزاهة نفس وكمال خصال حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامها والمأثور من خصائصهما جميع ايام من سواهما من لدن آدم الى ان ينفخ في الصور ويبعث اهل القبور حاشا انبياء الله الكرام وسلف عباده الصالحين لما باهت الا بهما ولا عولت في الفخر الا عليهما. ولقد كانا مع تهذيب اخلاقهما ومغسول مذاقهما وسنا اشراقهما وكمال خصال الخير فيهما في محاسن المأمون كالنقطة في البحر والخردلة في القفر



القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعْلَمْ انَّ لِسَانَ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ اوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ. وَفَنِّ ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ غَيْرُ ٱلْمَوْزُونِ. وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي ٱلْكَلَامِ. فَامَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلْمَدْحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ. وَامَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ ٱلْمُرْسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ اِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا ٱلْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ: ٱللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ ٱسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتَصَّتْ بِأُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِيَ. وَٱنْظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ. وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَغْرَاضِ وَصَارَ هٰذَا ٱلْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ. وَٱسْتَمَرَّ

ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِاسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

في البلاغة وانفساح خطوته وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك. واكثر من اخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس. فتامل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق الى الصواب بمنه وكرمه والله تعالى اعلم

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

الغرض في هذا القول تلخيص ما في كتاب ارسطاطاليس في الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع الامم او للاكثر اذ كثير مما فيه هي قوانين خاصة باشعارهم وعادتهم فيها. واما ان تكون نسباً موجودة في كلام العرب او موجودة في غيره من الالسنة. (قال) ان قصدنا الآن التكلم في صناعة الشعر وفي انواع الاشعار. وقد يجب على من يريد ان تكون القوانين

ٱلَّتِي يُعطَى فِيهَا تجرِي مجرَى ٱلْجُودَةِ اَنْ يَقُولَ اَوَّلًا مَا فِعلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاَنوَاعِ ٱلشِّعرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَاَيُّمَا هِيَ اَجزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ اَصْنَافُ ٱلْاَغرَاضِ ٱلَّتِي تُقصَدُ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعرِيَّةِ. وَاَنْ يَجعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلْاَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِٱلطَّبعِ فِي هٰذَا ٱلْمَعنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعرٍ وَكُلُّ قَولٍ شِعرِيٍّ فَهُوَ اِمَّا هِجَاءٌ وَاِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱستِقرَاءِ ٱلْاَشعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اَشعَارَهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ اَعنِي ٱلْحَسَنَةَ وَٱلْقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّربُ بِٱلْعِيدَانِ وَٱلزَّمرُ وَٱلرَّقصُ اَعنِي اَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِٱلطَّبعِ لِهٰذَينِ ٱلْغَرَضَينِ. وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعرِيَّةُ هِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ. وَاَصْنَافُ ٱلتَّخيِيلِ وَٱلتَّشبِيهِ ثَلَاثَةٌ اِثنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنهُمَا. اَمَّا ٱلْاِثنَانِ ٱلْبَسِيطَانِ فَاَحَدُهُمَا تَشبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِاَلفَاظٍ خَاصَّةٍ عِندَهُم مِثلَ كَاَنَّ وَاِخَالُ وَمَا اَشبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِندَهُم حُرُوفَ ٱلتَّشبِيهِ. وَاِمَّا اَخذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَينِهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْاِبدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلشَّاعِرِ:

هُوَ ٱلْبَحرُ مِنْ اَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ جِئتَهُ

وَيَنبَغِي اَنْ نَعلَمَ اَنَّ فِي هٰذَا ٱلْقِسمِ تَدخُلُ ٱلْاَنوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اَهلُ زَمَانِنَا ٱستِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثلَ قَولِ ٱلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ اَفرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

اِلّا انَّ ٱلكِنايَاتِ اكثَرَ ذٰلكَ هِيَ اِبدَالاتٌ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلشَّيْءِ . وَٱلاِستِعارَةُ هِيَ اِبدَالٌ مِنْ مُناسِبِهِ اعْنِي اِذَا كَانَ شَيْءٌ نِسْبَتُهُ اِلَى ٱلثَّانِي نِسْبَةُ ٱلثَّالِثِ اِلَى ٱلرَّابِعِ فَاِبدَالُ ٱسمِ ٱلثَّالِثِ اِلَى ٱلاوَّلِ وَبِٱلعَكسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ ٱلخَطَابَةِ مِنْ كَمْ شَيْءٍ تَكُونُ ٱلاِبدَالاتُ . وَامَّا ٱلقِسْمُ ٱلثَّانِي فَهُوَ انْ يُبدَّلَ ٱلتَّشبِيهُ مِثلَ انْ تَقُولَ : ٱلشَّمْسُ كَانَّهَا فُلَانٌ اوِ ٱلشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ كَٱلشَّمْسِ وَلَا هُوَ ٱلشَّمْسُ

وَٱلصِّنفُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلاقَاوِيلِ ٱلشِّعرِيَّةِ هُوَ ٱلمُرَكَّبُ مِنْ هٰذَيْنِ (قَالَ) وَكَمَا انَّ ٱلنَّاسَ بِٱلطَّبعِ قَدْ يُخَيِّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعضُهُمْ بَعضًا بِٱلافعَالِ مِثلَ مُحَاكَاةِ بَعضِهِمْ بَعضًا بِٱلالوَانِ وَٱلاشكَالِ وَٱلاصوَاتِ وَذٰلكَ امَّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلمُحَاكِينَ وَامَّا مِنْ قِبَلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ . كَذٰلكَ تُوجَدُ لَهُمُ ٱلمُحَاكَاةُ بِٱلاقَاوِيلِ بِٱلطَّبعِ وَٱلتَّخيِيلِ . وَٱلمُحَاكَاةُ فِي ٱلاقَاوِيلِ ٱلشِّعرِيَّةِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ ثَلَاثَةِ اشيَاءَ : مِنْ قِبَلِ ٱلنَّغَمِ ٱلمُتَّفِقَةِ وَمِنْ قِبَلِ ٱلوَزنِ وَمِنْ قِبَلِ ٱلتَّشبِيهِ نَفسِهِ . وَهٰذِهِ قَدْ يُوجَدُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنهَا مُفرَدًا عَنْ صَاحِبِهِ مِثلُ وُجُودِ ٱلنَّغَمِ فِي ٱلمَزَامِيرِ وَٱلوَزنِ فِي ٱلرَّقصِ وَٱلمُحَاكَاةِ فِي ٱللَّفظِ . اعْنِي ٱلاقَاوِيلَ ٱلمُخَيِّلَةَ ٱلغَيْرَ مَوزُونَةٍ . وَقَدْ تَجتَمِعُ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ بِاسْرِهَا مِثلَ مَا يُوجَدُ عِندَنَا فِي ٱلنَّوعِ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلمُوَشَّحَاتِ وَٱلازجَالَ وَهِيَ ٱلاشعَارُ ٱلَّتِي ٱستَنبَطَهَا فِي هٰذَا ٱللِّسَانِ اهلُ هٰذِهِ ٱلجَزِيرَةِ اِذْ كَانَتِ ٱلاشعَارُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جَمَعَتِ

ٱلأَمرَين جَميعًا. وَٱلأُمور ٱلطَّبيعيَّة إنّما توجد للأُمَم ٱلطَّبيعيّين فإنَّ أشعار ٱلعرب ليس فيها لحن. وإنّما هي إمّا ٱلوزن فقط وإمّا ٱلوزن وٱلمحاكاة معًا فيها. وإذا كان هذا هكذا فٱلصّناعة ٱلمخيّلة او ٱلتي تفعل فعل ٱلتّخييل ثلاثة. صناعة ٱللّحن وصناعة ٱلوزن وصناعة عمل ٱلأقاويل ٱلمحاكية وهذه ٱلصّناعة ٱلمنطقيّة ٱلّتي ننظر فيها في هذا ٱلكتاب. (قال): وكثيرًا ما يوجد من ٱلأقاويل ٱلّتي تسمّى أشعارًا ما ليس فيها من معنى ٱلشّعريّة إلّا ٱلوزن فقط كأقاويل سقراط ٱلموزونة وأقاويل انبادقليس في ٱلطّبيعيّات بخلاف ٱلأمر في أشعار اوميروش فإنّه يوجد فيها ٱلأمران جميعًا. (قال): ولذلك ليس ينبغي أن يسمّى شعرًا بٱلحقيقة إلّا ما جمع هذين. وأمّا تلك فهي أن تسمّى أقاويل أحرى منها أن تسمّى شعرًا وكذلك ٱلفاعل أقاويل موزونة بٱلطّبيعيّات هو أحرى أن يسمّى متكلّمًا من أن يسمّى شاعرًا. وكذلك ٱلأقاويل ٱلمخيّلة ٱلّتي تكون من أوزان مختلطة ليست أشعارًا. وحكي أن كانت توجد عندهم أعني من أوزان مختلطة وهذا غير موجود عندنا فقد تبيّن من هذا ٱلقول كم هي أصناف ٱلمحاكاة ومن أيّ ٱلصّنائع تلتئم ٱلمحاكاة بٱلقول حتّى تكون تامّة ٱلفعل



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسهِ)

(قالَ) ولَمّا كانَ المُحاكونَ والمُشبِّهونَ إنما يقصِدونَ بذلكَ أنْ يحثّوا على عملِ بعضِ الأفعالِ الإراديّةِ وأنْ يكفّوا عنْ عملِ بعضِها فقدْ يجبُ ضرورةً أنْ تكونَ الأمورُ التي تُقصَدُ محاكاتُها إمّا فضائلَ وإمّا رذائلَ وذلكَ أنَّ كلَّ فعلٍ وكلَّ خُلقٍ إنّما هوَ تابعٌ لأحدِ هذينِ أعني الفضيلةَ والرّذيلةَ فقدْ يجبُ ضرورةً أنْ تكونَ الفضائلُ إنّما تُحاكَى بالفضائلِ والفاضلينَ وأنْ تكونَ الرّذائلُ تُحاكَى بالرّذائلِ والأرذلينَ . وإذا كانَ كلُّ تشبيهٍ وحكايةٍ إنّما تكونُ بالحسنِ والقبيحِ فظاهرٌ أنَّ كلَّ تشبيهٍ وحكايةٍ إنّما يُقصدُ بها التحسينُ والتقبيحُ وقدْ يجبُ معَ هذا ضرورةً أنْ يكونَ المحاكونَ للفضائلِ أعني المائلينَ بالطّبعِ إلى محاكاتِها أفاضلَ . والمحاكونَ للرّذائلِ أنقصُ طبعًا منْ هؤلاءِ وأقربُ إلى الرّذيلةِ وعنْ هذينِ الصّنفينِ منَ النّاسِ وُجِدَ المديحُ والهجوُ . أعني مدحَ الفضائلِ وهجوَ الرّذائلِ ولهذا كانَ بعضُ الشّعراءِ يُجيدُ المدحَ ولا يُجيدُ الهجوَ وبعضُهمْ بالعكسِ أعني يُجيدُ الهجوَ ولا يُجيدُ المدحَ فإذنْ بالواجبِ ما كانَ يوجدُ لكلِّ تشبيهٍ وحكايةٍ هذانِ

ٱلفَضْلَانِ أَعنِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلتَّقْبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلفَضْلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشْبِيهِ وَٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلقَوْلِ لَا ٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلوَزْنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحْنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِٱلقَوْلِ فَصْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحْسِينٌ أَوْ تَقْبِيحٌ لٰكِنْ نَفْسُ ٱلمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ كَٱلمَادَّةِ ٱلمُعَدَّةِ لِأَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى ٱلطَّرَفَيْنِ أَعنِي أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً إِلَى ٱلتَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً إِلَى ٱلتَّقْبِيحِ بِزِيَادَةٍ أَيضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ أُومِيرُوشَ أَعنِي أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِٱلمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلمُحَسِّنَةِ وَٱلمُقَبِّحَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ ٱلأَمْرَيْنِ مِثْلُ أُومِيرُوشَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِأَصْنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِٱسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَأَنْتَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ أَبُو نَصْرٍ فِي ٱلنَّهَمِ وَٱلكَرِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَنَّبَهُ ٱلوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ أَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلكَرَمِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَحُثُّ ٱلعَرَبُ فِي أَشْعَارِهَا مِنَ ٱلفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ ٱلفَضِيلَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتُقْرِيَتِ ٱلْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلتذُّ بِالتَّشبِيهِ لِلاَشيَاءِ الَّتِي قَدْ اَحسَّهَا وَ بِالمُحاكَاةِ لَهَا. وَالدَّلِيلُ عَلَى
اَنَّ الاِنسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشبِيهِ بِالطَّبعِ وَيَفرَحُ هُوَ اَنَّا نَلتَذُّ وَنُسَرُّ
بِمُحَاكَاةِ الاَشيَاءِ الَّتِي لَا نَلتَذُّ بِاِحسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ اِذَا كَانَتِ
المُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ الاَستِقصَاءِ مِثلُ مَا يَعرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ
مِنَ الحَيوَانَاتِ الَّتِي يَعمَلُهَا المَهَرَةُ مِنَ المُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ العِلَّةِ
اَستُعمِلَ فِي التَّعلِيمِ عِندَ الاِفهَامِ وَالتَّخَاطُبِ الاِشَارَاتُ فَاِنَّهَا اَدَاةٌ
مُعِينَةٌ عَلَى فَهمِ الاَمرِ الَّذِي يُقصَدُ تَفهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ
الاِلتِذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي الاِشَارَاتِ مِنْ قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ
التَّخيِيلِ فَتَكُونُ النَّفسُ بِحَسَبِ اَلتِذَاذِهَا بِهِ اَتَمَّ قَبُولًا لَهُ. فَاِنَّ
التَّعلِيمَ لَيسَ اِنَّمَا يُوجَدُ لِلفَيلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ
مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الفَيلَسُوفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ يُوجَدُ التَّعلِيمُ بِالطَّبعِ
يَصدُرُ مِنَ اِنسَانٍ اِلَى اِنسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ الاِنسَانِ المُعَلِّمِ
مِنَ الاِنسَانِ المُتَعَلِّمِ وَالاِشَارَاتُ لَمَّا كَانَتْ اِنَّمَا هِيَ تَشبِيهَاتٌ
لِاُمُورٍ قَدْ اُحِسَّتْ فَبَيِّنٌ اَنَّهَا اِنَّمَا تُستَعمَلُ لِمَوَاضِعِ المُسَارَعَةِ اِلَى
الفَهمِ وَالقَبُولِ لَهُ وَاَنَّهُ اِنَّمَا يُفهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الاِلتِذَاذِ لِمَوضِعِ
التَّخيِيلِ الَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ العِلَّةُ الاُولَى المُوَلِّدَةُ لِلشِّعرِ. وَاَمَّا
العِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالتِذَاذُ الاِنسَانِ اَيضًا بِالطَّبعِ بِالوَزنِ وَالاَلحَانِ فَاِنَّ
الاَلحَانَ يَظهَرُ مِنْ اَمرِهَا اَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلوَزنِ عِندَ الَّذِينَ فِي طِبَاعِهِمْ
اَنْ يُدرِكُوا الاَوزَانَ وَالاَلحَانَ فَالتِذَاذُ النَّفسِ بِالطَّبعِ بِالمُحَاكَاةِ
وَالاَلحَانِ وَالاَوزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّنَاعَاتِ الشِّعرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلفِطَرِ ٱلفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَإِذَا نَشَأَتِ ٱلأُمَّةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ ٱلأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهٰكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ. وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلِٱلْتِذَاذِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ أَوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي مَدِيحَ ٱلأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ. وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ أَخَسُّ مِنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلْهِجَاءِ أَعْنِي هِجَاءَ ٱلأَفْعَالِ ٱلْقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصِدُهُ ٱلْهِجَاءُ لِلْشِّرَارِ وَٱلشُّرُورِ أَنْ يَمْدَحَ ٱلأَخْيَارَ وَٱلأَفْعَالَ ٱلْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ أَكْثَرَ أَعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا ٱلأَفْعَالَ ٱلْقَبِيحَةَ. فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلأُمَمِ أَوْ لِلأَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذْكَرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَذْكُرُ أَصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَأَيُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلْكَوْنِ عَلَى أَيِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ ٱلْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا أَوَّلَ مَنِ ٱبْتَدَأَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ. وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ يُثْنِي عَلَى أُومِيرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ أَنَّهُ ٱلَّذِي أَعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يُعَدُّ بِهَا صَوْتُهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَاذَا بِهَا صَوْتُهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِأَخَرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلِٱسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلِٱسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِٱكْتِرَابِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَايجَادُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي ٱلْأَعَارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلْقَصِيرَةِ وَلِذٰلِكَ رَفَضَ ٱلْمُتَاخِّرُونَ ٱلْأَعَارِيضَ ٱلْقِصَارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ. وَاخَصُّ ٱلْاَوْزَانِ بِهَا هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلْبَسِيطُ ٱلْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلٰكِنْ يَنْبَغِي الَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ الَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَٱلْحَدُّ ٱلْمُفْهِمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ هُوَ انَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةً تَنْفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفُوسُ ٱنْفِعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ وَذٰلِكَ بِمَا يُخَيِّلُ فِي ٱلْفَاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقِيِّ وَٱلنَّظَافَةِ فَإِنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ اِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ ٱلْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ اِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا اَنْ يُتَخَيَّلَ. وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ تَكْمُلُ اِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحْنُ وَٱلْوَزْنُ وَقَدْ تُوجَدُ بَيْنَ ٱلْمُنْشِدِينَ اَحْوَالٌ اُخَرُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْوَزْنِ وَٱللَّحْنِ تَجْعَلُ ٱلْقَوْلَ اَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ ٱلْإِشَارَاتُ وَٱلْاَخْذُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ فَاَوَّلُ اَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلشِّعْرِيِّ فِي ٱلْعَمَلِ هُوَ اَنْ تُحْصَى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي
ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ
هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ
ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِٱسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ
وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ
فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ
ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا
مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ
نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي
تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ
هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ ٱسْطِقْسَاتُ
ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ
كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ
عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ
مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ
وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ
بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي
بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ
عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا . وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً : ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ اَيْضًا : ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ اَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ فَتَكُونُ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً . وَاِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ اَعْظَمَ اَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِاَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ اَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ اَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ اِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَاَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْاَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ اَحَدَ اَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتَغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْاَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ . وَاَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ اِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ وَكَاَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ . وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْاَشْيَاءَ اَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ وَٱلِٱسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْاَصْنَافِ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى اَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَاَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ اَنَّ

كُلَّ مُحاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوطِّئَ لِمُحاكَاتِهِ بِمُحاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحاكِي ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ لِمُحاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْأُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ ٱلَّذِي يُحاكَى وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْأُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِأَنَّ ٱلِٱلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى صُوَرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزَّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلِٱعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحاكَاةُ هِيَ أَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْأَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

إنَّ ٱلَّذي يَحُثُّ على ٱلعادةِ يحُثُّ على عملِ شيءٍ أو على ٱلهربِ من شيءٍ وٱلقولَ ٱلَّذي يحُثُّ على ٱلاعتقادِ إنَّما يحُثُّ على أنَّ شيئًا موجودٌ أو غيرُ موجودٍ لا على شيءٍ يُطلَبُ أو يُهرَبُ عنهُ. وٱلجزءُ ٱلرَّابعُ لهذهِ ٱلأجزاءِ أعني ٱلتَّاليَ للثَّالثِ هوَ ٱلوزنُ ومِن تمامهِ أن يكونَ مناسبًا للغرضِ فرُبَّ وزنٍ يُناسِبُ غرضًا ولا يُناسِبُ غرضًا آخرَ. وٱلجزءُ ٱلخامسُ في ٱلمرتبةِ هوَ ٱللَّحنُ وهوَ أعظمُ هذهِ ٱلأجزاءِ تأثيرًا وأفعلُها في ٱلنُّفوسِ. وٱلجزءُ ٱلسَّادسُ هوَ ٱلنَّظرُ أعني ٱلاحتجاجَ لصوابِ ٱلاعتقادِ أو صوابِ ٱلعملِ لا بقولٍ إقناعيٍّ فإنَّ ذلكَ غيرُ ملائمٍ لهذهِ ٱلصِّناعةِ بل بقولٍ مُحاكٍ فإنَّ صناعةَ ٱلشِّعرِ ليستْ مبنيَّةً على ٱلاحتجاجِ وٱلمناظرةِ وبخاصَّةٍ صناعةُ ٱلمديحِ ولذلكَ ليس يستعملُ ٱلمديحُ صناعةَ ٱلنِّفاقِ وٱلأخذِ بٱلوجوهِ كما تستعملها ٱلخطابةُ. (قالَ) وٱلصِّناعةُ ٱلعلميَّةُ ٱلَّتي تُعرَفُ ممَّاذا تُعمَلُ ٱلأشعارُ وكيفَ تُعمَلُ أتمُّ رئاسةً من عملِ ٱلأشعارِ فإنَّ كلَّ صناعةٍ تُوقِفُ ما تحتها منَ ٱلصَّنائعِ على عملِها هيَ أرأسُ ممَّا تحتها



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فاذ قد قيل ما هي صناعة المديح وبماذا تلتئم وكم اجزاؤها وما هي فلنقل في الاشياء التي بها يكون حسن الامور التي يتقوّم بها الشعر . فان القول في هذه الاشياء ضروريٌّ في صناعة المديح وفي غيرها وهو لها بمنزلة المبدإ وذلك ان الامور التي تتقوّم منها الصنائع صنفان امورٌ ضروريّة وامورٌ تكون بها اتمّ وافضل فنقول انه يجب ان تكون صناعة المديح مستوفيةً لغايات فعلها اعني ان تبلغ من التشبيه والمحاكاة الغاية التي في طباعها ان تبلغها وذلك يكون باشياء احدها ان يكون للقصيدة عِظَمٌ ما محدودٌ تكون به كلًّا وكاملةً والكلُّ والكامل هو ما كان له مبدأٌ ووسطٌ وآخرٌ والمبدأ قبلُ وليس يجب ان يكون مع الاشياء التي هو لها مبدأٌ والآخر هو مع الاشياء التي هو لها آخرٌ وليس قبلُ والوسط هو قبلُ ومعًا فهو افضل من الطرفين اذ كان الوسط في المكان قبلُ وبعدُ فان الشجعان هم الذين مكانهم في الحرب ما بين مكان الجبناء والمتهوّرين وهو المكان الوسط وكذلك الحدُّ الفاضل في التركيب هو الوسط وهو الذي يتركّب من الاطراف ولا تتركّب الاطراف منه وليس يجب ان

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلْعَادَةُ عِندَ ٱلْيُونَانِيِّينَ إِذْ كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَامَّا بِتَأْجِيلِ ٱلْأَيَّامِ كَالْحَالِ عِندَنَا إِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِندَنَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَالْحَالِ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ إِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلْبَخْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ إِلَى ٱلضِّدِّ أَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسَّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ أَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا أُومِيرُوشَ. وَأَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِندَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ ٱشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَأَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

أَعنِي أَنْ تَكُونَ إِنَّمَا تَفعَلُ جَمِيعَ مَا تَفعَلُهُ مِنْ أَجلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّشبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِوَاحِدٍ وَمَقصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَأَنْ يَكُونَ لِأَجزَائِهِ عِظَمٌ مَحدُودٌ وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ ٱلْوَسَطُ أَفضَلَهَا فَإِنَّ ٱلْمَوجُودَاتِ ٱلَّتِي وُجُودُهَا فِي ٱلتَّرتِيبِ وَحُسْنِ ٱلنِّظَامِ إِذَا عَدِمَتْ تَرتِيبَهَا لَمْ يُوجَدْ لَهَا ٱلْفِعلُ ٱلْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ أَيضًا مِمَّا قِيلَ مِنْ مَقصَدِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعرِيَّةِ أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْأُمُورِ ٱلْمُختَرَعَةِ ٱلْكَاذِبَةِ لَيسَتْ مِنْ فِعلِ ٱلشَّاعِرِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَمثَالًا وَقِصَصًا مِثلُ مَا فِي كِتَابِ دِمنَةَ وَكَلِيلَةَ. لٰكِنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوجُودَةِ أَوِ ٱلْمُمكِنَةِ ٱلْوُجُودِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُقصَدُ ٱلْهَرَبُ عَنهَا أَوْ طَلَبُهَا أَوْ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ ٱلْمُحَاكَاةِ. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ يَعمَلُونَ ٱلْأَمثَالَ وَٱلْقِصَصَ فَإِنَّ عَمَلَهُم غَيرُ عَمَلِ ٱلشُّعَرَاءِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعمَلُونَ تِلكَ ٱلْأَمثَالَ وَٱلْأَحَادِيثَ ٱلْمُختَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوزُونٍ. وَذٰلِكَ أَنَّ كِلَيهِمَا وَإِنْ كَانَا يَشتَرِكَانِ فِي ٱلْوَزنِ فَأَحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ ٱلْعَمَلُ ٱلَّذِي قَصَدَهُ بِٱلْخُرَافَةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَوزُونَةً وَهُوَ ٱلتَّعَقُّلُ ٱلَّذِي يُستَفَادُ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمُختَرَعَةِ وَٱلشَّاعِرُ لَا يَحصُلُ لَهُ مَقصُودُهُ عَلَى ٱلتَّمَامِ مِنَ ٱلتَّخيِيلِ إِلَّا بِٱلْوَزنِ فَٱلْفَاعِلُ لِلْأَمثَالِ ٱلْمُختَرَعَةِ وَٱلْقِصَصِ إِنَّمَا يَختَرِعُ أَشخَاصًا لَيسَ لَهَا وُجُودٌ أَصلًا وَيَضَعُ لَهَا أَسمَاءً وَأَمَّا ٱلشَّاعِرُ فَإِنَّمَا يَضَعُ أَسمَاءً لِأَشيَاءَ مَوجُودَةٍ وَرُبَّمَا تَكَلَّمُوا فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعرِ أَقرَبَ إِلَى ٱلْفَلسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ ٱختِرَاعِ ٱلْأَمثَالِ وَهٰذَا ٱلَّذِي

قاله هو بحسب عادتهم في الشعر الذي يشبه ان يكون هو الامر الطبيعي الامم الطبيعية (قال) واكثر ما يجب ان يعتمد في صناعة المديح ان تكون الاشياء المحاكيات امورًا موجودة لا امورًا لها اسماء مخترعة فان المديح انما يتوجه نحو التحريك الى الافعال الارادية فاذا كانت الافعال ممكنة كان الاقناع فيها اكثر وقوعًا اعني التصديق الشعري الذي يحرك النفس الى الطلب والهرب. واما الاشياء الغير الموجودة فليس توضع وتخترع لها اسماء في صناعة المديح الا اقل ذلك مثل وضعهم الجود شخصًا ثم يضعون افعالًا له ويحاكونها ويطنبون في مدحه. وهذا النحو من التخييل وان كان قد ينتفع به منفعة غير يسيرة لمناسبة افعال ذلك الشيء المخترع وانفعالاته للامور الموجودة فليس ينبغي ان يعتمد في صناعة المديح فان هذا النحو من التخييل ليس مما يوافق جميع الطباع بل قد يضحك منه ويزدريه كثير من الناس. ومن جيد ما في هذا الباب للعرب وان لم يكن على طريق الحث على الفضيلة قول الاعشى:

لعمري لقد لاحت عيون نواظر الى ضوء نارٍ باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبانٍ ثدي امٍ تحالفا باسحم داجٍ عوض لا نتفرق

واذا كان هذا هكذا فظاهر ان الشاعر انما يكون شاعرًا بعمل الخرافات والاوزان بقدر ما يكون قادرًا على عمل التشبيه

وَٱلْمحاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا أَيْضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ أَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَأَخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلْاِعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخَيُّلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكَيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قال) وكثير من الاقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة الغير المتفننة وكثير منها انما تكون جودتها في نفس التشبيه والمحاكاة وذلك ان الحال في التشبيه كالحال في الاعمال فكما ان من الاعمال ما ينال بفعل واحد بسيط ومنها ما ينال بفعل مركب كذلك الامر في المحاكاة. والمحاكاة البسيطة هي التي يستعمل فيها احد نوعي التخييل اعني النوع الذي يسمى الادارة او النوع الذي يسمى الاستدلال. واما المحاكاة المركبة فهي التي يستعمل فيها الصنفان جميعا وذلك اما بان يبتدأ بالادارة ثم ينتقل منه الى الاستدلال او يبتدأ بالاستدلال ثم ينتقل منه الى الادارة والاعتماد هو ان يبدأ بالادارة ثم ينتقل منه الى الاستدلال فانه فرق كبير بين ان يبدأ اولا بالادارة ثم ينتقل الى الاستدلال او يبدأ بالاستدلال ثم ينتقل الى الادارة. (قال) واعني بالادارة محاكاة ضد المقصود مدحه اولا بما ينفر النفس عنه ثم ينتقل منه الى محاكاة الممدوح نفسه مثلا انه اذا اراد ان يحاكي السعادة واهلها ابتدأ اولا بمحاكاة الشقاوة واهلها ثم انتقل الى محاكاة اهل السعادة وذلك بضد ما حاكى به اهل الشقاوة. واما الاستدلال فهو محاكاة الشيء فقط (قال) واحسن الاستدلال ما خالط بالادارة. (قال) وقد يستعمل الاستدلال والادارة في الاشياء الغير المتنفسة وفي المتنفسة لا من جهة ما يقصد به عمل

اَوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلِاسْتِدْلَالَ وَٱلْاِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَةٍ
اَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ

اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَاَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ ٱسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِاسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَا هُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي ٱنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَامَّا اجزاء صِناعَةِ ٱلْمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَامَّا اجزاؤُهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي انْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اجزاء خَاصَّةً بِاشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اشْعَارِ ٱلْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . ٱلْجُزْء ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلْآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلْجُزْء ٱلثَّانِي ٱلْمَدْحُ . وَٱلْجُزْء ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلْخَاتِمَةِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلْجُزْء اكْثَرَ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ امَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَامَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلْجُزْء ٱلْاوَّلُ اشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلْآخِرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلِانْتِقَالَ مِنَ ٱلْجُزْء ٱلْاوَّلِ الَى ٱلثَّانِي ٱسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اتَوْا بِٱلْمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ . مِثْلُ قَوْلِ ابِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيْنَا انْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اجزاء صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَيْفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

اخبرنا بها. فاما من اي المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك الى ما تقدم (قال) وينبغي كما قيل ان لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من انواع الاستدلالات وانواع الادارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحركة المرققة للنفوس وذلك انه يجب ان تكون المدائح التي يقصد بها الحث على الفضائل مركبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة اشياء مخوفة محزنة يتفجع لها وهي الشقاوة التي تلحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك ان بهذه الاشياء يشتد تحرك النفس لقبول الفضائل فان انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة الى محاكاة لا فضيلة او من محاكاة فاضل الى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحث الانسان ويزعجه الى فعل الفضائل اذا كان ليس يوجب محبة لها زائدة ولا خوفا. والاقاويل المديحية يجب ان يوجد فيها هذان الامران وذلك يكون اذا انتقل من محاكاة الفضائل الى محاكاة الشقاوة ورداءة البخت النازلة بالافاضل او انتقل من هذه الى محاكاة اهل الفضائل فان هذه المحاكاة ترق النفوس وتدعها الى قبول الفضائل وانت تجد اكثر المحاكاة الواقعة في الاقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر اذ كانت تلك هي اقاويل مديحية تدل على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف واخوته وغير ذلك من الاقاصيص التي تسمى مواعظ (قال) وانما تحدث الرحمة والرقة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ. وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلِانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلْأَصْدِقَاءِ. وَامَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ اوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ اِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخِيفَةُ ٱلْمُحْزِنَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ اِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا اَوْ اُخْرِجَتْ مَخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي اَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ اَرَاذِلَ لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِاَحَدِ قَوْلَيْنِ اِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَامَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلناسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ اَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَاَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ اِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ اَيُّ لَذَّةٍ اتَّفَقَتْ لٰكِنْ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِالْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَامَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِالْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحمَةَ وَٱلخَوفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلإِنسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلتَمَسَ أَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلحَقُ عَنهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوفٍ وَأَمثَالُ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلأَصدِقَاءِ بَعضِهِمْ مِنْ بَعضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلأَعدَاءِ بَعضِهِمْ مِنْ بَعضٍ فَإِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيْسَ يَحزَنُ وَلَا يُشفِقُ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيسَ يَلحَقُ مِثْلُ ٱلأَلَمِ ٱلَّذِي يَلحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ بَعضِهِمْ بِبَعضٍ مِثْلُ قَتْلِ ٱلإِخوَةِ بَعضِهِمْ بَعضًا أَوْ قَتْلِ ٱلآبَاءِ ٱلأَبنَاءَ أَوِ ٱلأَبنَاءِ ٱلآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلحُزْنِ وَٱلخَوفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلأَفعَالِ ٱلفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ مَا يُفعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلأَفعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَٱلفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيسَ يَدْخُلُ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلأُكْذُوبَاتِ أَدْخَلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى . وَأَمَّا ٱلأَفعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا اَحسَنَ ٱلِاَسْتِدْلَالَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَفعَالِ (قَالَ) فَاَمَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْاَشْعَارُ وَكَيفَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ تركيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَامَّا ايُّ ٱلْعَادَاتُ هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُحَاكَى فِي ٱلْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ اِنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلْمَدْحِ ٱلْجَيدِ اَعْنِي ٱلَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ اَرْبَعَةٌ اِحْدَاهَا ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ فَاِنَّ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَقِّ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنْسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَاِنْ كَانَ فِيهِ اَشْيَاءُ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَٱلثَّانِيَةُ اَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَصْلُحُ لَهُ وَذَلِكَ اَنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَرْاَةِ لَيْسَتْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ. وَٱلثَّالِثَةُ اَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ اَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشَّبَهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ. وَٱلرَّابِعَةُ اَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْاَطْرَافِ وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذَٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَاِنْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ اِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ اَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلْعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ اِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَاِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَاِمَّا مَشْهُورَةٌ اَوْ شَبِيهَةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلٌّ

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِإِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَأَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى أَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ أَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْأَخْلَاقَ وَأَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِأُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

أَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ
يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ إِلَيْكَ إِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْأَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَأَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلْإِسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى أَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

انواعٌ كثيرةٌ فمنها ان تكون المحاكاة لأشياء محسوسةٍ بأشياء محسوسةٍ من شأنها ان توقع الشكَّ لمن ينظر اليها وتوهم انها هي لاشتراكها في احوالٍ محسوسةٍ وذلك مثل تسميتهم لبعض صور الكواكب سرطانًا ولبعضها ممسك الحربة لأنها من جهة الشكل يمكن ان يتوهم متوهمٌ انها هي هي. وجلُّ تشبيهات العرب راجعةٌ الى هذا الموضع ولذلك كانت حروف التشبيه عندهم تقتضي الشكَّ وكلما كانت هذه المتوهمات اقرب الى وقوع الشكِّ كانت اتمَّ تشبيهًا وكلما كانت ابعد من وقوع الشكِّ كانت انقص تشبيهًا وهذه هي المحاكاة البعيدة وينبغي ان تطرح وذلك مثل قول امرىء القيس في الفرس:

كأنها هراوةُ منوالِ

ومثل قوله:

إذا اقبلتْ قلتُ دبَّاءةٌ من الخضرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ
وإن ادبرتْ قلتُ أُثفيَّةٌ مُلَمْلَمَةٌ ليس فيها اثُرْ

وإن كان هذا اقرب من الاوَّل لانَّ فيه مقابلةً ما. ومنها ان تكون المحاكاة لأمورٍ معنويَّةٍ بأمورٍ محسوسةٍ اذ كان لتلك الأمور افعالٌ مناسبةٌ لتلك المعاني حتى توهم انها هي مثل قولهم في المنَّة انها طوق العنق وفي الاحسان قيدٌ كما قال ابو الطيِّب:

ومن وجد الاحسانَ قيدًا تقيَّدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُتُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبًا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ ... فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفْقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ ... سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كَفَارٍ وَثَّبُوا خَلْفَ حَائِطٍ ... وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمِثَالَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا   لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا   وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيِّتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ   لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى   دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى

فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا   وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي ... مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ

إِذَا ٱبْيَاضُ ٱلصُّبْحِ ٱسْتَنَتْ ضَوْءُهُ ... يُعَاوِدُنِي جِنٌّ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلْأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلْأَحِبَّةِ بِٱلْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلْمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوتِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فِي ٱلْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ :

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ ... فَيَا عَجَبَا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْخَلْقِ أَوِ ٱلْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلَا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحَجْرٍ صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ

وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ :

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ   وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ   وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعَرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ اِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ اِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ   وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَانِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ   حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ   وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ :

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اُبِثُّهُ   تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ :

اَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ   حَتَّى تَكَلَّمَ كَالْاَصَمِّ ٱلْاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي   وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلْاِسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ

ٱلإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلْإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ.

(قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصَصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللّٰهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسُّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي

فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللّٰهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي

أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا

وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يُحَصِّلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْاِسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ ... مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِٱلْفَلَا ... لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ ٱلْعِيدِ
هَيْهَاتِ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ ... حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ ٱلْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا ... مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا ٱلشَّادِنُ ٱلْعَرَبَا
فَٱسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَٱلْمُغِيثِ يُرَى ... لَيْثَ ٱلشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا ٱنْتَسَبَا

وَأَمَّا ٱلْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ ٱلْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا ٱلْإِدَارَةُ. وَٱلثَّانِي ٱلِٱسْتِدْلَالُ. وَٱلثَّالِثُ ٱلِٱنْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَٱلرَّابِعُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ ٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ ٱلْمَدَائِحِ ٱلْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْقَصَائِدِ ٱلْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ ٱلْأَشْعَارَ ٱلْقِصَارَ وَٱلْقَصَائِدَ ٱلْقَصِيرَةَ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُجِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِٱلْكَثْرَةِ وَٱلْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهٰؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هٰؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقَصِّدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلِٱنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلِٱنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ أَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلْإِنْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تَثْبُتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ أَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ هَا هُنَا أَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَأَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ إِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَإِمَّا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَأَمَّا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تُهَجِّنُهَا إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلنَّاصِرِ بِحَضْرَ ٱلْمَلَإِ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

إِنَّ ٱلَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ أَجْلِهِ   يَزْعُمُ هٰذَا إِنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْأَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ. وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلْمُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ. فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلْأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تدلُّ تِلكَ ٱلاسماء ٱلَّتي رُكِّبَ مِنها مِثلُ عَبدِ شَمسٍ وعَبدِ ٱلقَيسِ (قالَ) وكُلُّ ٱسمٍ فهُوَ اما حَقيقيٌّ وَاِمَّا دَخيلٌ فِي ٱللِّسانِ وَاِمَّا مَنقُولٌ نادِرُ ٱلاستِعمالِ وَاِمَّا مُزَيَّنٌ وَاِما مَعمُولٌ وَاِمَّا مَعقُولٌ وَاِمَّا مُفارَقٌ وَاِمَّا مُغَيَّرٌ . فَٱلحَقيقيُّ هُوَ ٱلاسمُ ٱلَّذي يَكُونُ خاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخيلُ هُوَ ٱلَّذي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخرَى فَيُدخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ فِي شِعرِهِ وذٰلِكَ مِثلُ ٱلإستبرَقِ وَٱلمِشكاةِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلاسماء ٱلاعجَميَّةِ ٱلدَّخيلَةِ فِي لِسانِ ٱلعَرَبِ . وَامَّا ٱلاسمُ ٱلنَّادِرُ ٱلمَنقُولُ فَهُوَ نَقلُ ٱسمٍ غَريبٍ اِمَّا مِنَ ٱلنَّوعِ اِلَى ٱلجِنسِ مِثلُ تَسمِيَةِ ٱلقَتلِ مَوتًا وَاِمَّا مِنَ ٱلجِنسِ اِلَى ٱلنَّوعِ مِثلُ تَسمِيَةِ ٱلنُّقلَةِ حَرَكَةً وَاِمَّا مِن نَوعٍ اِلَى نَوعٍ آخَرَ مِثلُ تَسمِيَةِ ٱلخِيانَةِ سَرِقَةً وَاِمَّا اَن يُنقَلَ شَيءٌ مَنسُوبٌ اِلَى ثانٍ اِلَى شَيءٍ ثالِثٍ مَنسُوبٍ اِلَى رابِعٍ مِثلُ نِسبَةِ ٱلاوَّلِ اِلَى ٱلثَّاني مِثلَ ما كانَ يُسَمِّي بَعضُ ٱلقُدَماءِ ٱلشَّيخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلعُمرِ ويُسَمِّي ٱلعَشِيَّةَ شَيخُوخَةَ ٱلنَّهارِ وذٰلِكَ اَنَّ نِسبَةَ ٱلشَّيخُوخَةِ اِلَى ٱلعُمرِ نِسبَةُ ٱلعَشِيَّةِ اِلَى ٱلنَّهارِ وَامَّا ٱلاسمُ ٱلمَعمُولُ ٱلمُرتَجَلُ فهوَ ٱلاسمُ ٱلَّذي يَختَرِعُهُ ٱلشاعِرُ ٱختِراعًا وَيَكُونُ هُوَ اَوَّلَ مَن ٱستَعمَلَهُ وَهٰذا غَيرُ مَوجُودٍ فِي اَشعارِ ٱلعَرَبِ وَاِنَّما يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَاَكثَرُ ما فِي ٱلصَّنائِعِ هُوَ مَنقُولٌ لا مَعمُولٌ مُختَرَعٌ وَرُبَّما ٱستَعمَلَهُ ٱلمُحدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَراءِ عَلَى طَريقِ ٱلاستِعارَةِ اَعني ٱلمَنقُولَ اِلَى ٱلصَّنائِعِ مِثلُ قَولِ اَبي ٱلطَّيِّبِ :

اِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا
مَضَى قَبْلَ اَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَاَمَّا ٱلْمُفَارِقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ اَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارِقِ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ اَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ اَسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِاسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَاِنَّهُ فِيمَا اَحْسِبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱلِاسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَاَمَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ اِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَاِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَاِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَاَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ اِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُسْتَوْلِيَةَ وَٱلْاَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ . وَيَنْبَغِي اَنْ نَتَفَقَّدَ مَنِ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِهِ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْاُخَرِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِاَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْاَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ اَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ اَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ اَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ اِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَاِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ اَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْاُخَرِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ اَوِ ٱلْغَرِيبَةِ اَوِ ٱلْاَلْسُنِ اَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ اَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ اَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ اِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا اَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَاَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْاَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعَادَلَــةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوَازَنَتُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَـكُونَ عَامًّا وَمُشْـتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَهْزَأُ بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْـلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰـكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ . وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْـدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰـذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا . وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَـكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ . أَوْ أَنْ تَـكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَـكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَـكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَـكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَـكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى . فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَـةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلعَزْمِ تَأْتِي ٱلعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلخَيْلِ وَٱلخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحِمْلِ وَٱلْحَمْلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلقَوَافِي عِنْدَ ٱلعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْأَخِيرُ وَامَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحَدَّثُونَ بِٱللُّزُومِ . وَامَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي اجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى انْحَاءٍ ارْبَعَةٍ احَدُهَا انْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ اوْ يَأْتِيَ بِٱلاضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ اوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ . اوْ يَأْتِيَ بِٱلْاشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ ارْبَعَةِ اشْيَاءَ . وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ :

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِأَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

كَأَنِّيَ لَمْ ارْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ وَلَمْ اتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ اسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ اقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ اعْنِي انْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْأَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ :

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ انْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ أَبُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ ٱمْرُؤُ ٱلقَيْسِ (قَالَ) وَٱلْقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا أَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلأَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلأَسْمَاءِ ٱلغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ أَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ ٱلْقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا أَوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلآخَرِ:

يَا دَارُ أَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ   قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا أُنْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ أَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَأَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَأَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلإِنْسِ وَٱلأُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ ٱلأَشْعَارَ ٱلْمُحَرِّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تكونُ بالموازنةِ والمدافعةِ والابدالِ والتشبيهِ وبالجملةِ باخراجِ القولِ غيرَ مخرجِ العادةِ مثلُ القلبِ والحذفِ والزيادةِ والنقصانِ والتقديمِ والتأخيرِ وتغييرِ القولِ منَ الايجابِ الى السلبِ ومنَ السلبِ الى الايجابِ وبالجملةِ منَ المقابلِ الى المقابلِ وبالجملةِ بجميعِ الانواعِ التي تسمى عندنا مجازًا فالحذفُ مثلُ قولِ القرآنِ واسالِ القريةَ . وقولِهِ : ولو انَّ قرآنًا سُيّرتْ بهِ الجبالُ او قُطّعتْ بهِ الارضُ او كُلّمَ بهِ الموتى . والقلبُ مثلُ قولِ القائلِ : فلانٌ منْ اجلِ بنيهِ لا بنوهُ منْ اجلِهِ والسنّةُ سببُ الانسانِ لا الانسانُ سببُ السنّةِ . والتقديمُ والتأخيرُ مثلُ قولِهِ : ولم يجعلْ لهُ عوجًا قيمًا . وقولِهِ : واذِ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ . والزيادةُ مثلُ قولِهِ : تنبتُ بالدهنِ ومثلُ قولِهِ : ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ومثلُ قولِهِ ولا طائرٌ يطيرُ بجناحيهِ ومثالُ التغييرِ منَ الايجابِ الى السلبِ قولُ القائلِ : ما فعلهُ احدٌ الّا انتَ بدلَ قولِهِ : انتَ فعلتَهُ ومن هذا المعنى قولُ النابغةِ :

وَلَا عيبَ فيهمْ غيرَ انَّ سيوفَهمْ بهنَّ فلولٌ منْ قراعِ الكتائبِ

فانَّهُ اوجبَ لهمُ الفضائلَ لينفيَ العيوبَ واستثنى منها ما ليسَ بعيبٍ على جهةِ تسميةِ الشيءِ باسمِ ضدِّهِ . ومنَ التغييراتِ اللذيذةِ جمعُ الاضدادِ في شيءٍ واحدٍ كقولِهِ :

فيكَ الخصامُ وانتَ الخصمُ والحكمُ

وكونُ الضدِّ سببًا لضدٍّ كقولِهِ : ولكمْ في القصاصِ حياةٌ وليسَ يخفى عليكَ انواعُها البسيطةُ والمركّبةُ المحصورةُ في هذهِ الكلّياتِ

وَيُشبِهُ أَنْ يَكُونَ إِحصَاءُ أَنوَاعِهَا ٱلأَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ أَقتَصِرُ هُنَا عَلَى ٱلكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَشيَاءِ هُوَ أَنْ يُستَعمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهَا مَا هُوَ أَبيَنُ وَأَظهَرُ وَأَشبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱستِعمَالَ ٱلأَبيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَشيَاءِ وَٱلأَشبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجمَعُ إِلَى جُودَةِ ٱلإِفهَامِ فِعلَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعرِيَّةِ أَعنِي تَحرِيكَ ٱلنَّفسِ مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلإِبدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ أَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخيِيلِ وَٱلإِفهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلإِبدَالِ ٱلمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهمٍ عِندَ ٱلفِدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَولِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلخَيطُ ٱلأَبيَضُ مِنَ ٱلخَيطِ ٱلأَسوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعضُهُمْ أَنَّهُ ٱلخَيطُ ٱلحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلفَجرِ. (قَالَ) وَٱلأَسمَاءُ ٱلمُرَكَّبَةُ تَصلُحُ لِلوَزنِ ٱلَّذِي يُثنَى فِيهِ عَلَى ٱلأَخيَارِ مِنْ غَيرِ تَعيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنهُمْ وَهٰذِهِ ٱلأَسمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ وَهِيَ مِثلُ قَولِهِمِ ٱلعَبشَمِيُّ ٱلمَنسُوبُ إِلَى عَبدِ شَمسٍ. وَأَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصلُحُ لِلشِّعرِ ٱلَّذِي يُذكَرُ فِيهِ أَمرُ ٱلمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلأَهوَالِ وَكَانَ صِنفًا مِنَ ٱلشِّعرِ عِندَهُمْ مَعرُوفًا. وَأَمَّا ٱلأَسمَاءُ ٱلمَنقُولَةُ ٱلغَرِيبَةُ فَتَختَصُّ بِٱلأَشعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلأَمثَالِ وَٱلحِكَمِ وَٱلقِصَصِ ٱلمَشهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَفِيمَا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْاَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ اِلَّا اَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ فِيهَا وَاِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْاَفْعَالُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ اَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ اَحْوَالِ ٱلْمُتَاخِرِ وَكَيْفَ تَنْتَقِلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْاَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَاَثْنَى ثَنَاءً عَامًا عَلَى اُومِيرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْاَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا اُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ … تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ اِيَادِ

اَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ … وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

نَزَلُوا بِاَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ … مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ اَطْوَادِ

جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ … فَكَاَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

فَاَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ … يَوْمًا يَصِيرُ اِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قالَ) وَأجزاءُ هٰذا ٱلنَّوعِ هِيَ أجزاءُ صِناعةِ ٱلْمَديحِ ٱلعفيفيَّةِ مِنَ ٱلْإِدارَةِ وَٱلِاستِدْلالِ وَٱلتَّركيبِ مِنهُما. ورُبَّما كانَ بعضُ أجزائِها ٱنفِعاليًّا كَٱلحالِ في صِناعةِ ٱلْمَديحِ . وَصَنائِعُ ٱلشِّعْرِ وَأحكامُها في ٱلتَّلحينِ وَٱلغِناءِ أحكامُ صِناعةِ ٱلْمَديحِ . وذَكَرَ فُروقًا بَيْنَ صِناعةِ ٱلْمَديحِ وَبَيْنَ صَنائِعِ ٱلشِّعْرِ ٱلأُخَرِ عِنْدَهُمْ وَخَواصَّ تَختَصُّ بِها تِلكَ ٱلأَشعارُ ٱلأُخَرُ في ٱلأَوْزانِ وَٱلأَجزاءِ وَٱلمُحاكاةِ وَٱلقَدْرِ وَأنَّ هاهُنا أوزانًا هِيَ أليَقُ بِبَعضِ ٱلأَشعارِ مِن بَعضٍ وذَكَرَ مَنْ أجادَ مِنَ ٱلشُّعَراءِ في هٰذِهِ ٱلأَشياءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَأثنَى في هٰذا كُلِّهِ عَلَى أوميروشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خاصٌّ بِهِمْ وَغَيرُ مَوجودٍ مِثالُهُ عِندَنا إمّا لِأنَّ ذٰلِكَ ٱلَّذي ذَكَرَ غَيرُ مُشتَرَكٍ لِلأَكثَرِ مِنَ ٱلأُمَمِ وَإمّا أنَّهُ عَرَضَ لِلعَرَبِ في هٰذِهِ ٱلأَشياءِ أمرٌ خارِجٌ عَنِ ٱلطَّبعِ وَهُوَ أبيَنُ فَإنَّهُ ما كانَ لِيُثبِتَ في كِتابِهِ هٰذا ما هُوَ خاصٌّ بِهِمْ بَلْ ما هُوَ مُشتَرَكٌ لِلأُمَمِ ٱلطَّبيعيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنبَغي أنْ يَكونَ ما يَأتي بِهِ ٱلشّاعِرُ مِنَ ٱلكَلامِ يَسيرًا بِٱلإِضافَةِ إلَى ٱلكَلامِ ٱلمُحاكَى كَما كانَ يَفعَلُ أوميروشُ فَإنَّهُ إنَّما كانَ يَعمَلُ صَدرًا يَسيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إلَى ما يُريدُ مُحاكاتَهُ مِنْ غَيرِ أنْ يَأتِيَ في ذٰلِكَ بِشَيءٍ لَمْ يُعتَدْ لٰكِنْ ما قَدِ ٱعتيدَ فَإنَّ غَيرَ ٱلمُعتادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لِأَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمْ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ :

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لَا فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذْنَيْهِ أُذْنٌ ثَالِثٌ مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبِّهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبِّهَ ٱلشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ اضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقُرْءِ وَٱلْجَلَدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْإِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ:

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ:

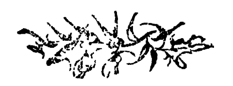
ٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْأَحِبَّةُ فِيهِمِ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ أَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لهم هذه الأشياء ولا شعروا بها فهذا هو ما تأدّى إلى فهمنا مما ذكره ارسطو في كتابه هذا من الأقاويل المشتركة لجميع اصناف الشعر والخاصة بالمديح اعني المشتركة منها ايضا للأكثر او للجميع وسائر ما ذكره في كتابه هذا من الفصول التي بين سائر اصناف الشعر عندهم وبين صنف المديح فهو خاص بهم ومع ذلك فلسنا نجده ذكر من ذلك في هذا الكتاب الواصل الينا إلّا بعض ذلك. وذلك يدلّ على أنّ هذا الكتاب لم يترجم على التمام وأنّه بقي منه التكلّم في سائر فصول اصناف كثير من الأشعار عندهم وقد كان هو وعد بالتكلّم في هذه كلّها في صدر كتابه. والّذي نقص مما هو مشترك هو التكلّم في صناعة الهجاء لكن يشبه أن يكون الوقوف على ذلك بقرب من الأشياء الّتي قيلت في باب المديح إذ كانت الأضداد يعرف بعضها من بعض. وأنت تتبيّن اذا وقفت على ما كتبناه ها هنا أنّ ما شعر به أهل لساننا من القوانين الشعريّة بالإضافة الى ما في كتاب ارسطو هذا وفي كتاب الخطابة نزر يسير كما يقوله ابو نصر. وليس يخفى عليك ايضا كيف ترجع تلك القوانين الى هذه ولا ما ذكروا من ذلك على وجه الصواب مما ذكر على غير ذلك والله الموفق للصواب بفضله ورحمته



الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَر وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمْ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا

مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي ... وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَلُجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى ... قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّه

وَقَالَ ٱمْرُوءُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ :

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا   نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُوءُ ٱلْقَيْسِ . وَكَانَ اَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ اَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْاَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ اَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ اَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ اَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِيءِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْاَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْاَصْغَرِ وَٱلْاَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ . وَٱسْمُ ٱلْاَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْاَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةٍ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانٍ . وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ . وَٱلْاَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحٰرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ . ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَاَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ اِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمِ اِلَى ٱلْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ اَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ اَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَاَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ . وَكَانَ ٱلْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ اَوْسٌ اَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ اَوس زُهَيرٌ وَكَانَ اوسٌ زَوجَ اُمِّ زُهَيرٍ (قَالَ عُمَرُ بنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ اَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيهِ وَقَدِ ٱخْتَلَفَ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱدَّعَتِ ٱلْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا اَنَّهُ ٱلْاَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةِ لِاَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذٰلِكَ شِعْرًا فَادَّعَتِ ٱلْيَمَانِيَةُ لِاَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَنُو اَسَدٍ لِعَبِيدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِمُهَلْهِلٍ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَٱلْمُرَقِّشِ ٱلْاَكْبَرِ وَاِيَادٌ لِاَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ اَنَّ ٱلْاَفْوَهَ ٱلْاَوْدِيَّ اَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرُ ٱلْمُدَّعَى لَهُمُ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ اَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ ٱلْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ اَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي اَمَالِيهِ) قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: اَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱلْاَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ ٱلْاِسْلَامِ اَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) اَوَّلُ مَنْ قَالَ ٱلشِّعْرَ ٱبْنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ): ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ اَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ اَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ اِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ٱلرَّسُولِ فِي ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ اَنَّهُ اَشْعَرُ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ اِلَى ٱلنَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ . وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ: عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ. وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ: رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمِنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ: إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ): مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ: ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ. وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ: ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلأَخْطَلُ وَٱلأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفٌ ٱلأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ ٱلأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى ٱلأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنُصَيْبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحٰرِثَ بْنَ حِلِزَّةَ وَأَثْبَتَا ٱلأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي نَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ نَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ... كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى ... فَشُقِّي ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلٰكِنْ ... فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَالَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخْرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ اَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللّٰهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ . وَاَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ: اَرْبَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ: ٱلنَّابِغَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْاَخْطَلُ: ٱلْاَعْشَى اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحْمَرَ: زُهَيْرٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: طَرَفَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ: عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْاَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلْاِتِّفَاقِ . وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي اِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ: اَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْاَكْبَرُ وَاَشْعَرُ ٱلْاِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً : مَنْ اَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: اَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبَدَةَ وَقِيلَ اَوْسَ بْنَ حَجَرٍ . وَلَيْسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيسِ وَأَهلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعشَى وَأَهلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا . قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ : قَالَ أَهلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبعَدَهُمْ مِنْ سَخَفٍ وَأَجمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنطِقِ . وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكثَرَهُمْ رَونَقَ كَلَامٍ وَأَجزَلَهُمْ بَيتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ . وَزَعَمَ أَصحَابُ ٱلْأَعشَى أَنَّهُ أَكثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدحًا وَهِجَاءً وَفَخرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعشَى أَشعَرُ ٱلْأَربَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَأَينَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ : بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعشَى مَا قُلتُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ : أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : أَشعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمرِو بنُ ٱلْعَلَاءِ : أَفصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلسُنًا وَأَعرَبُهُمْ أَهلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا. ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ. وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَزَعَمَ يُونُسُ: أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ. وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ. وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ: وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ.

وَكَانَ أَبو عُبَيدَةَ يَقولُ: اُفْتِتِحَ ٱلشِّعْرُ بِٱمْرِئِ ٱلقَيسِ وَخُتِمَ بِٱبْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَـةٌ: ٱلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَٱلجَاهِلِيُّ ٱمْرُؤُ ٱلقَيسِ وَٱلإِسْلَامِيُّ ذو ٱلرُّمَّةِ وَٱلْمُوَلَّـدُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَولُ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلبَدِيعَ وَخَاصَّةً ٱلتَّشْبِيـهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخرَى تَقولُ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلأَعْشَى وَٱلأَخْطَـلُ وَأَبُو ٱلفَوَارِسِ وَهٰـذَا مَذهَبُ أَصْحَابِ ٱلخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِٱلتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ ٱلتَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَومٌ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ وَهٰذَا قَولُ مَنْ يُؤْثِرُ ٱلأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ ٱلْكَلَامِ وَٱلقُدْرَةَ عَلَى ٱلصَّنْعَـةِ وَٱلتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيسَ فِي ٱلمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ ٱسْمًا مِنَ ٱلحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَٱلبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيـدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي ٱلِاشْتِهَارِ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ وَٱبْنُ ٱلمُعْتَزِّ وَطَارَ ٱسْمُ ٱبْنِ ٱلمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَٱلحَسَنِ فِي ٱلمُوَلَّدِينَ وَٱمْرِئِ ٱلقَيسِ فِي ٱلقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ ٱلمُتَنَبِّي فَمَلَأَ ٱلدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ٱبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ ٱلأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَولَادِ ٱلخُلَفَـاءِ فَأَجَادَ وَأَحسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَـدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْـلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ ٱلآدَابِ أَبُو ٱلعَبَّاسِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلمُعْتَزِّ بِٱللهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِـلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ ٱلمُلُوكِيَّـةِ وَغَزَلُ ٱلظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ ٱلمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ الْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى السَّابِقِينَ وَاَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ الْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ النَّورِ وَالْبَنَفْسَجِ وَالنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ الْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ الْفَرْشِ وَمُخْتَارِ الْآلَاتِ وَرِقَّةِ الْخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ الْكَلَامِ السَّبْطِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ الْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ الْبِيدِ وَالْمَهَامِهِ وَالظِّبَاءِ وَالظَّلِيمِ وَالنَّاقَةِ وَالْجَمَلِ وَالدِّيَارِ وَالْقِفَارِ وَالْمَنَازِلِ الْخَالِيَةِ الْمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ اِذَا اَحْسَنَ الْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي الْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي الْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ الَى التَّقْصِيرِ فِي الْجَمِيعِ لِنَشْرِ الْمَقَابِحِ وَطَيِّ الْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ الطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ الشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى الْاَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ الْاَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ الشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ ... بِمَقْتٍ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْبُقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ . وَاِنَّمَا عَلَى الْاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنَ

ٱلشَّيْءِ اَحْسَنَهُ وَيُلْغِيَ مَا لَا يُسْتَحْسَنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ اَقْوَامًا اَرَادُوا اَنْ يَرْفَعُوا اَنْفُسَهُمُ ٱلْوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمِ ٱلْخَامِلِ وَيُعْلُوا اَقْدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِٱلطَّعْنِ عَلَى اَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْحِ فِيهِمْ فَلَا يَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ اِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزْدَادُ ٱلْآخَرُ اِلَّا ٱرْتِفَاعًا. اَلَا تَرَى اِلَى ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ قَدْ قُتِلَ اَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ خَلَفٌ يُقَرِّظُهُ وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِاَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ اِخْبَارِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلْعُلُومِ اِلَّا رِفْعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ اِلَى اَضْدَادِهِ كُلَّمَا ٱزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيظِ اَنْفُسِهِمْ. وَاَسْلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَٱلطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا اَشْعَارَهُمْ وَقَرَّظُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَاِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلْمُحَصِّلُ ٱلْمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي ٱلْآدَابِ اِلَى ٱلتَّشْنِيعِ بِاَمْرِ ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ اَبِي طَالِبٍ وَهُمْ اَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى آلِ اَبِي طَالِبٍ عِنْدَ ٱلْمُكْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ اَنْفُسِهِمْ بِذٰلِكَ اِلَى عَيْبِهِ وَٱرْتَكَبُوا اَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ حَسَنَ ٱلْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ ٱلْمُوسِيقَى وَٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي ذٰلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْآدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عِلْمِهِ وَاَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً اِلَيْهِ بِخَطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ اِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ اِلَى ٱبْنِ حَمْدُونَ فِي اَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ اَنْ يُغَيِّرَ ٱلْاِنْسَانُ بَعْضَ نَغَمِ ٱلْغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلْقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ تَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرَّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (اَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ ارَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْاَ م يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ ابُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ اشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي ايْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا. وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلٌّ اشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ ابِي عُبَيْدَةَ انَّهُ قَالَ: اتَّفَقُوا انَّ اشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحٰرِثُ ٱبْنُ حِلِزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْاَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيِّ وَسُوَيْدُ بْنُ ابِي كَاهِلٍ وَٱلْاَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلْمُغَلَّبونَ فمنهم نابغةُ بنُ جعدةَ ومعنى ٱلمُغلَّبِ ٱلذي لا زالَ مغلوبًا قال ٱمرؤُ ٱلقيسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفخَرْ عَلَيكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغلِبكَ مِثلُ مُغلَّبِ

يَعني اِذا قدرَ لم يُبقِ وقد غلبَ على ٱلجعديِّ اوسُ بنُ مغراءَ وليلى ٱلأخيليَّةُ وغيرُهما. وقيلَ اِنَّ موتَ ٱلجعديِّ كانَ بسببِ ليلى ٱلأخيليَّةِ فرَّ مِن بينِ يديها فماتَ في ٱلطريقِ مُسافِرًا. وٱلمُغلَّبون ٱلزِّبرقانُ غلبَهُ عمرُو بنُ ٱلأهتمِ وغلبَهُ ٱلمُخبَّلُ ٱلسَّعديُّ وغلبَهُ ٱلحُطيئةُ وقالَ يونسُ بنُ حبيبٍ كانَ ٱلبعيثُ مُغلَّبًا في ٱلخُطَبِ

قالَ ٱبنُ رشيقٍ في ٱلعُمدةِ في بابِ ٱلقُدماءِ وٱلمُحدَثينَ: كُلُّ قديمٍ مِنَ ٱلشُّعراءِ فهوَ مُحدَثٌ في زمانِهِ بِٱلإضافةِ اِلى من كانَ قبلَهُ وكانَ ٱبو عمرِو بنُ ٱلعلاءِ يقولُ لقد حسُنَ هذا ٱلمُولَّدُ حتّى هممتُ ان آمرَ صِبيانَنا بروايتِهِ يَعني بذلكَ شِعرَ جريرٍ وٱلفرزدقِ فجعلَهُ مُولَّدًا بِٱلإضافةِ اِلى شِعرِ ٱلجاهليَّةِ وٱلمُخضرَمينَ وكانَ لا يَعُدُّ ٱلشِّعرَ اِلَّا ما كانَ للمُتقدِّمينَ قالَ ٱلأصمعيُّ: جلستُ اِليهِ عشرَ حِجَجٍ فما سمعتُهُ يَحتجُّ ببيتٍ اِسلاميٍّ وسُئِلَ عنِ ٱلمُولَّدينَ فقالَ: ما كانَ مِن حسَنٍ فقد سُبِقوا اِليهِ وما كانَ مِن

قَبِيحٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَيْسَ ٱلنَّمطُ وَاحِداً . هٰذَا مَذْهَبُ أَبِي عَمْرٍو وَأَصْحَابِهِ كَٱلْأَصْمَعِيِّ وَٱبْنِ ٱلْأَعْرَابِيِّ أَعْنِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَذْهَبُ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَيُقَدِّمُ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِشَيْءٍ إِلَّا لِحَاجَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ إِلَى ٱلشَّاهِدِ وَقِلَّةِ ثِقَتِهِمْ بِمَا يَأْتِي بِهِ ٱلْمُوَلَّدُونَ فَأَمَّا ٱبْنُ قُتَيْبَةَ فَقَالَ : لَمْ يَقْصِرِ ٱللهُ ٱلشِّعْرَ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْبَلَاغَةَ عَلَى زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ وَلَا خَصَّ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ بَلْ جَعَلَ ذٰلِكَ مُشْتَرَكاً مَقْسُوماً بَيْنَ عِبَادِهِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَجَعَلَ كُلَّ قَدِيمٍ حَدِيثاً فِي عَصْرِهِ . ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي بَابٍ آخَرَ : طَبَقَاتُ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ وَمُخَضْرَمٌ وَهُوَ ٱلَّذِي أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُحْدَثٌ ثُمَّ صَارَ ٱلْمُحْدَثُونَ طَبَقَاتٍ أُولَى وَثَانِيَةً عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ هٰكَذَا فِي ٱلْهُبُوطِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا فَلْيَعْلَمِ ٱلْمُتَأَخِّرُ مِقْدَارَ مَا بَقِيَ لَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مُتَصَفِّحاً أَشْعَارَ مَنْ قَبْلَهُ لِيَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ ٱلْمُخَضْرَمِ وَٱلْجَاهِلِيِّ وَبَيْنَ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَٱلْمُخَضْرَمِ وَأَنَّ لِلْمُحْدَثِ ٱلْأَوَّلِ فَضْلاً عَمَّنْ بَعْدَهُ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ . فَفِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِيِّينَ مَنْ ذَهَبَ بِكُلِّ مَلَاحَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَسَبَقَ إِلَى كُلِّ طَلَاوَةٍ وَلَبَاقَةٍ (قَالَ) أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْأَخْفَشُ : يُقَالُ مَاءٌ خِضْرِمٌ إِذَا تَنَاهَى فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلسَّعَةِ فَمِنْهُ سُمِّيَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي شَهِدَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَماً كَأَنَّهُ ٱسْتَوْفَى ٱلْأَمْرَيْنِ (قَالَ) وَيُقَالُ : أُذُنٌ مُخَضْرَمَةٌ إِذَا كَانَتْ مَقْطُوعَةً فَكَأَنَّهُ ٱنْقَطَعَ عَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ . (وَحَكَى) ٱبْنُ قُتَيْبَةَ عَنِ ٱلْأَصْمَعِيِّ قَالَ : أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفَلَقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا. وقَالِيَةُ ٱلأَفَاعِي دُوَيبَّةٌ فوقَ ٱلخُنفَسَاءِ فَصغَّرهَا تحقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلحَاتِمِيُّ انَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ فقَالَ من ٱستُجِيدَ جَيِّدُهُ وَاضحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَّا انْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلحُطَيئَةُ:

ٱلشِّعرُ صَعبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ وَٱلشِّعرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظلِمُهْ
إِذَا ٱرتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعلَمُهْ زَلَّتْ بِهِ إِلَى ٱلحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ انْ يُعرِبَهُ فَيُعجِمُهْ

وَقَالَ بَعضُهُمْ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعلَمَنَّ ارْبَعَهْ فَشَاعِرٌ لَا يُرتَجَى لِمَنفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنشِدُ وَسْطَ ٱلمَجمَعَهْ وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمرٌ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشعُرُ بِمَا لَا يَشعُرُ بِهِ غَيرُهُ. قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيهِ فِي شَرحِ ٱلدُّرَيدِيَّةِ يُقَالُ: انْشَدتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ اي ابيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلمُستَحسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ: إِنَّ ٱلمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعرِ مَا كَانَ ٱسمُ ٱلمَمدُوحِ فِيهِ مَذكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هٰذَا ٱلبَيتُ عُقرُ هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ اي اجْوَدُ بَيتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هٰذَا بَيتٌ طَنَّانٌ. اه. وَفِي ٱلمَقصُورِ وَٱلمَمدُودِ لِلقَالِي: قَالَ ابُو عُبَيدَةَ فِي قَولِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنيَانُ عَنِّي صُدُودَ ٱلبَكرِ عَنْ قَرمِ ٱلهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَابُوهُ شَاعِرٌ كَكَعبِ بنِ زُهَيرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ

إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدٍّ فَذَ ... مِ لِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ

وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصَبَا ... نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَأَمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلِاضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أَحْوَجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا أَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ ... مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ يَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرَكَ بَيِّنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَخَابِطِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حضرًا. وَامدُّ عصرًا وَذٰلِكَ انَّ ٱلشَّاعِرَ اِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ اوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يدَيْ مَلِكٍ فَاِنْ حَكَى عَنْ نَفسِهِ وَاِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِاَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا احْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حدَّثَنَا ابو عَبْدِ ٱللهِ ٱلغِلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ: دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ ٱلْاَرْضُ اِنْ تَفقِدْكَ يومًا   وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنظَرَ اِلَيْهِ ٱلنُّعمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ. وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: اَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ اِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِاَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا   فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا انْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَامَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ. فَاِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْاَشَمِّ بِمَا لَا يَفهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ اَمرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا اعْذَرُ لِاَنَّهَا لُغَتُهُمْ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ اَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عُنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا اِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ اَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ اَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ اِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اَعْطَافِ شِعْرِهَا بِاَنْ تُجَنِّسَ اَوْ تُطَابِقَ اَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اَوْ جَزَالَتِهِ

وَبسطِ ٱلمعنَى اَوْ اِبرازِهِ وَاِتقَانِ بِنيَةِ ٱلشِّعرِ وَاِحكَامِ ٱلقَافيَةِ وَتلَاحمِ ٱلكَلَامِ بَعضِهِ بِبَعضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضلِ صَنعَةِ ٱلحُطَيئَةِ حَتَّى نَسقَهُ ٱلكَلَامَ بَعضَهُ عَلَى بَعضٍ:

فَلَا وَاَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيعٌ   بِاَنْ يَبنُوا ٱلمَكَارِمَ حَيثُ شَاؤُوا
وَلَا وَاَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيعٌ   وَلَا عَنفُوا بِذَاكَ وَلَا اَسَاؤُوا
فَاِنَّ ٱلجَارَ مِثلَ ٱلضَّيفِ يَغدُو   لِوُجهَتِهِ وَاِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَاِنِّي قَدْ عَلِقتُ بِحَبلِ قَومٍ   اَعَانَهُمُ عَلَى ٱلحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱستَظرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنعَةِ نَحوَ ٱلبَيتِ وَٱلبَيتَينِ فِي ٱلقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلقَصَائِدِ يُستَدَلُّ بِذٰلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَاَمَّا اِذَا كَثُرَ ذٰلِكَ فَهُوَ عَيبٌ يَشهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبعِ وَاِيثَارِ ٱلكُلفَةِ وَلَيسَ يَتَّجِهُ ٱلبَتَّةَ اَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا اَوْ اَكثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيرِ قَصدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ اَشعَارِ حَبِيبٍ وَٱلبُحتُرِيِّ وَغَيرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطلُبَانِ ٱلصَّنعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَاَمَّا حَبِيبٌ فَيَذهَبُ اِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفظِ وَمَا يَملَأُ ٱلاَسمَاعَ مِنهُ مَعَ ٱلتَّصنِيعِ ٱلمُحكَمِ طَوعًا وَكَرهًا يَأْتِي ٱلاَشيَاءَ مِنْ بُعدٍ وَيَطلُبُهَا بِكُلفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَاَمَّا ٱلبُحتُرِيُّ فَكَانَ اَملَحَ وَاَحسَنَ مَذهَبًا فِي ٱلكَلَامِ يَسلُكُ مِنهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ اِحكَامِ ٱلتَّصنُّعِ وَقُربِ ٱلمَأْخَذِ لَا يَظهَرُ عَلَيهِ كُلفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا اَعلَمُ شَاعِرًا اَكمَلَ وَلَا اَملَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبدِ ٱللهِ بنِ ٱلمُعتَزِّ فَاِنَّ صَنعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظهَرُ فِي بَعضِ ٱلمَوَاضِعِ اِلَّا لِلبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعرِ وَهُوَ عِندِي

أنظفُ أصحابِهِ شِعْرًا وأكثرُهُمْ بديعًا وأفتنانًا وأقربُهُمْ قوافِيَ وأوزانًا ولا أرى وراءهُ غايةً لطالِبِها في هذا البابِ. غيرَ أنَّا لا نجدُ المبتدئَ في طلبِ التصنيعِ ومُزاولةِ الكلامِ أكثرَ انتفاعًا ونهُ بمطالعةِ شِعْرِ حبيبٍ وشِعْرِ مُسلِمِ بنِ الوليدِ لما فيهما مِنَ الفضيلةِ لِمُبتغيها ولأنَّهُما طرقَا إلى الصَّنعةِ ومعرفتِها طريقًا سابلةً وكثَّرا منها في أشعارِهما تكثيرًا سهَّلها عندَ النَّاسِ وجسَّرهُمْ عليها. على أنَّ مُسلِمًا أسهلُ شِعْرًا من حبيبٍ وأقلُّ تكلُّفًا وهوَ أوَّلُ مَنْ تكلَّفَ البديعَ مِنَ المولَّدينَ وأخذَ نفسَهُ بالصَّنعةِ وكثَّرَ منها ولَمْ يكُنْ في الأشعارِ المحدَثةِ قبلَ مُسلِمٍ إلا النُّبَذُ اليسيرةُ. وهوَ زهيرُ المولَّدينَ كانَ يُبطئُ في صنعتِهِ ويُجيدُها. وقالوا: أوَّلُ مَنْ فتقَ البديعَ مِنَ المحدَثينَ بشَّارُ بنُ بُرْدٍ وهوَ ساقةُ العربِ وآخِرُ مَنْ يُستشهدُ بشِعْرِهِ ثُمَّ اتَّبعَهُما مُقتديًا بهما كلثومُ بنُ عمرٍو العتَّابيُّ ومنصورٌ النَّمَريُّ ومُسلِمُ بنُ الوليدِ وأبو نُواسٍ واتَّبعَ هؤلاءِ أبو تمَّامٍ والبُحتريُّ وعبدُ اللهِ بنُ المعتزِّ فانتهى عِلْمُ البديعِ والصَّنعةِ وخُتِمَ بِهِ. وشبَّهَ قومٌ أبا نُواسٍ بالنَّابغةِ لِما اجتمعَ لهُ مِنَ الجزالةِ معَ الرَّشاقةِ وحُسْنِ الدِّيباجةِ والمعرفةِ بمدحِ الملوكِ. وأمَّا بشَّارٌ فقدْ شبَّهوهُ بامرئِ القيسِ لتقدُّمِهِ على المولَّدينَ وأخذِهِمْ عنهُ. ومِنْ كلامِهِمْ: بشَّارٌ أبو المحدَثينَ. وسمِعْنا أبا عبدِ اللهِ غيرَ مرَّةٍ يقولُ: إنَّما سُمِّيَ الأعشى صنَّاجةَ العربِ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ ذكرَ الصَّنجَ في شِعْرِهِ. قالَ ويُقالُ بلْ سُمِّيَ صنَّاجةً لقوَّةِ طبعِهِ وحِلْيةِ شِعْرِهِ يُخيَّلُ إليكَ إذا

أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع.

انقضى كلام عبد الله ورجعنا إلى القول في الطبع والتصنيع.

فإذا كان الشاعر مصنعا فإن جيده من سائر شعره كأبي تمام، فصار محصورا معروفا بأعيانه فإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحتري ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن أبي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سودنيق باكر وحوافر حفر ورأس صنتع

وذكر قول أبي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف في اللفظ من الحافر الأحفر إلا أن أبا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها. والذي أراه أن ابن الرومي أبصر بأبي تمام وغيره منا وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم. غير أني لو شئت أن أقول ولست رادا عليه ولا معترضا بين يديه أن المعنى الذي أراده وأشار إليه من جهة أبي تمام إنما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه. وأما اللفظ الذي ذكر أنه لا يبالي به إنما هو فصيح

ٱلْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ٱدَّعَيْتُهُ عَلَى ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ قَوْلُهُ إِنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْمُقَعَّبَ أَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْأَحْفَرِ. فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قُلْتُهُ فِي أَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا قَالَ وَإِنَّمَا هُوَ هٰذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ. وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ: كَمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهِ بَدَوِيًّا أَعْرَابِيًّا فَإِنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَفْهَمُهُ ٱلْوَحْشِيُّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ ٱلسُّوقِيُّ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ (قَالَ) وَأَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَٱسْتَغْرَبُوهُ فَقَالَ: وَٱللهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلٰكِنَّكُمْ فِي ٱلْأَدَبِ غُرَبَاءُ. وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَفَلَ وَأَرَادَ تَبْكِيتَهُ لَمَّا أَنْشَدَهُ: يَا أَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ. فَقَالَ لَهُ: وَأَنْتَ لِمَ لَا تَفْهَمُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ. وَيُرْوَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَانَتْ مَعَ أَبِي ٱلْعَمَيْثَلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَأَجَابَهُمَا. وَقَالَ بَعْضُ مَنْ نَظَرَ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ إِنَّمَا أَبُو تَمَّامٍ كَٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَضَعُ ٱللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْبَيِّنَةِ أَوْ كَٱلْفَقِيهِ ٱلْوَرِعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ. وَأَبُو ٱلطَّيِّبِ كَٱلشُّجَاعِ ٱلْجَرِيءِ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ. وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ مِنْ عَبِيدِ ٱلشِّعْرِ يُرِيدُ أَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ إِصْلَاحَهُ وَيُشْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا. وَمِنْ

اَصحابِهما فِي ٱلتَّنقيحِ وَفِي ٱلتَّثقيفِ وَٱلتَّحكيكِ طُفَيلٌ ٱلغَنَوِيُّ . وقد قِيلَ اِنَّ زُهَيرًا اَيضًا روى لهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسنِ شِعرِهِ . وَمِنهُم ٱلحُطَيئَةُ وَٱلنَّمِرُ بنُ تولَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ ابو عَمرِو بنُ ٱلعَلَاء ٱلكَيِّسَ . وَكَانَ بعضُ ٱلحُذَّاقِ يَقولُ : قُل مِنَ ٱلشِّعرِ مَا يَخدُمُكَ وَلَا تَقُل مِنهُ مَا تَخدُمُهُ وَهُوَ مَعنَى كَلَامِ ٱلاَصمَعِيِّ . وَسَاُحَلِّي هٰذَا ٱلبَابَ مِن كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَختِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكسُوهُ حُلَّةً رائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعضَ مَا ضَمِنتُ وَاَقضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطتُ اِن شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . فَمِن ذٰلِكَ قَولُهُ سَنَة ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهلَهُ :

وَلِي كَبِدٌ مَكلُومَةٌ لِفِرَاقِكُم ... اُطَأْمِنُهَا صَبرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ
تَمَنَّيتُكُم شَوقًا اِلَيكُم وَعَبرَةً ... عَسَى ٱللهُ اَن يُبدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَينٌ جَفَاهَا ٱلنَّومُ وَٱعتَادَهَا ٱلبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكرُ ٱلقَيرَوَانِ ٱستَهَلَّتِ

فَلَو اَنَّ اَعرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى ٱلوَطَنِ اَو تَشَوَّقَ فِيهِ بَعضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا ٱلوَلَدُ ٱلحَضَرِيُّ ٱلمُتَاخِّرُ ٱلعَصرِ . وَمَا اَنحَطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمييزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَنتَعِقُ بِهٰذَا ٱلقَولِ عِندَ مَولَايَ وَلَا ٱلخَدِيعَةُ مِمَّا نُظَنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِن قَد رَاَيتُ وَجهَ ٱلحَقِّ فَعَرَفتُهُ وَٱلحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ ٱلاَحمَرُ ٱلسَّعدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :

مِنَ ٱلقَولِ مَا يَكفِي ٱلمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنهُ ٱلَّذِي لَا يَكتَفِي ٱلدَّهرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِاسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

ايضاً بمدحِهِ الثناء عليهِ فيكون ذلك على وجههِ . والبيتُ من الشعرِ كالبيتِ من الابنيةِ والشعرِ قرارهُ الطبعُ وسمكهُ الروايةُ ودعائمهُ القلمُ وبابهُ الدربةُ وساكنهُ المعنى ولا خيرَ في بيتٍ غيرِ مسكونٍ . وصارتِ الاعاريضُ والقوافي كالموازينِ والامثلةِ للابنيةِ او كالاواخيّ والاوتادِ للاخبيةِ . واما ما سوى ذلك من محاسنِ الشعرِ فانما هو زينةٌ مستأنفةٌ لو لم تكن لاستُغنيَ عنها . قالَ القاضي عليُّ بن عبدِ العزيزِ الجرجانيُّ صاحبُ كتابِ الوساطةِ : الشعرُ علمٌ من علومِ العربِ يشتركُ فيهِ الطبعُ والروايةُ والذكاء ثمَّ تكونُ الدربةُ مادةً لهُ وقوةً لكلِّ واحدٍ من اسبابهِ فمن اجتمعت لهُ هذهِ الخصالُ فهو المحسنُ المبرّزُ وبقدرِ نصيبهِ منها تكونُ مرتبتهُ من الاحسانِ . قالَ ولستُ افصلُ في هذهِ القضيةِ بينَ القديمِ والمحدثِ والجاهليِّ والمخضرمِ والاعرابيِّ والمولدِ الا انِّي ارى حاجةَ المحدثِ الى الروايةِ امسَّ واجدهُ الى كثرةِ الحفظِ افقرَ فاذا استكشفتَ عن هذهِ الحالةِ وجدتَ سببها والعلةَ فيها انَّ المطبوعَ الذي لا يمكنهُ تناولُ الفاظِ العربِ الا روايةً ولا روايةَ ولا طريقَ الى الروايةِ الا السمعُ وملاكُ السمعِ الحفظُ . وقالَ دعبلٌ في كتابهِ من ارادَ المديحَ فبالرغبةِ ومن ارادَ الهجاء فبالبغضاءِ ومن ارادَ التشبيبَ فبالشوقِ والعشقِ ومن ارادَ المعاتبةَ فبالاستبطاءِ : فقسّمَ الشعرَ كهذهِ الاقسامِ الاربعةِ وكانَ الرثاء عندهُ من بابِ المدحِ على ما قدّمتُ . الا انهُ جعلَ العتابَ

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ: ٱلشِّعْرُ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشْبِيهِ ٱلْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضْلُ ٱلْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ ٱلْإِفْصَاحِ وَٱلْإِشَادَةِ بِذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزْلَةً وَأَلْفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيْرَ مُبْتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ حِرْمَانَهُ وَقَدْ رَأَيْتَ عَمَلَ ٱلْبُحْتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ ٱلْأَبْيَاتَ وَيُبْرِزُ وُجُوهَ ٱلْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلْكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ عُمَارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا ٱلْمُمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱبْنِ أُمِّ ٱلْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ ٱلَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِكَهَا أَحَدٌ قَبْلِي فَغَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا

تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَذَرٍ غُمْرِ

وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱليَدَينِ إِلَى ٱلعُلَا

تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمسُ ٱلمُضِيئَةُ لِلبَدرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحسَنتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلمَمدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيفَ أَطنَبَ وَذَلِكَ مَحمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلمَذمُومُ. فَإِن كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنهَا وَكَذَلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَستَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعطِيَهُ صِفَةَ غَيرِهِ فَيَصِفَ ٱلكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلقَاضِيَ بِٱلحَمِيَّةِ وَٱلمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هَذَا لِشُعَرَاءِ وَقتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ ٱلمَلِكُ بِبَعضِ مَا يَتَّجِهُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ فِي مَدحِ ٱلمُعتَزِّ:

لَا ٱلعَذلُ يَردَعُهُ وَلَا مِ ٱلتَّعنِيفُ عَن كَرَمٍ يَصُدُّهُ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنكَرَهُ عَلَيهِ أَبُو ٱلعَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ عُبَيدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلخَلِيفَةَ عَنِ ٱلكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هَذَا بِٱلهِجَاءِ أَولَى مِنهُ بِٱلمَدحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلأَخطَلِ قَولُهُ فِي عَبدِ ٱلمَلِكِ بنِ مَروَانَ هَذَا ٱلبَيتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلخِلَافَةَ مِنهُمُ

لِأَبيَضَ لَا عَارِي ٱلخِوَانِ وَلَا جَدبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهٰذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ.
وَاجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيضَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَارَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذْقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِانَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا مِمَّا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِانَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا اخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ احْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ انَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ انَّ مَرْوَانَ بْنَ ابِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلِٱتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلَ وَٱلْعِفَّةَ وَٱلْعَدَالَةَ وَٱلشَّجَاعَةَ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالُهُ ۝ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ۝ كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَرَادَ أَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى أَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهْ. فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (أَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٍ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلِانْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلٌّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ:

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةِ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةِ ٱلْغَفْلَةِ وَجُودَةِ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ:

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

يُمدح به القائد الجود والشجاعة وما تفرّع منها من الافراط في النجدة وسرعة البطش وما شاكل ذلك. ويُمدح القاضي بما ناسب العدل والانصاف وتقريب البعيد في الحق وتبعيد القريب في الاخذ للضعيف من القوي والمساواة بين الفقير والغني ببسط الوجه ولين الجانب وقلة المبالاة في اقامة الحدود واستخراج الحقوق فان زاد الى ذلك وذكر الورع والتحرّج وما شاكلهما فقد بلغ النهاية. وصفات القاضي كلها لائقة بصاحب المظالم ومن كان دون هذه الثلاث الطبقات سوى طبقة الملك فلا ارى لمدحه وجهًا فان دعت الى ذلك ضرورة مُدح كل انسان بالفضل في صناعته والمعرفة بطريقته التي هو فيها. واكثر ما يعوّل على الفضائل النفسانية التي ذكرها قدامة وان اضيفت اليها فضائل عرضية او جسمية كالجمال والابهة وبسطة الخلق وسعة الدنيا وكثرة العيش كان ذلك جيدًا. الّا انّ قدامة قد ابى منه وانكره جملة وليس ذلك صوابًا وانما الواجب عليه ان يقول: المدح بالفضائل النفسانية اشرف واصحّ فامّا انكار ما سواها جملة واحدة فما اظنّ احدًا يساعده فيه ولا يوافقه عليه وقد كره الحذاق ان يُمدح الملوك بما ناسب قول موسى شهوات ويُروى لغيره:

انت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير ان لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ ... عابه الناس غير انك فاني

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ ... سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ

وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا ... بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافِهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ ... مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ. وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ ... يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ ... م وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْاخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ ... وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِـهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ :

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ :

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ ... إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى ... وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ :

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا ... حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ :

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ :

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ ٱمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا
أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعبِلٌ بَلْ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلقَيْنِيِّ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلجِزْعَ ثَاقِبُهُ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلبَيتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : أَجْمَعَ أَهْلُ ٱلعِلْمِ أَنَّ بَيْتَيْ أَبِي نُوَاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

أَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْأَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
إِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكَلْتَ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلأَيَّامُ مَا ٱسْمِيَ مَا دَرَتْ
وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قالَ صاحِبُ ٱلكِتابِ: نحْنُ إلى ٱلإنْصافِ أحوجُ مِنَّا إلى ٱلمُكابرَةِ وٱلخِلافِ وأبو نُواسٍ ذهَبَ مَذهبًا لطيفًا يخرُجُ لهُ فيهِ ٱلعُذرُ وٱلتَّأويلُ وإلَّا فَما في صِفةِ ٱلخُمولِ أشدُّ مِمَّا ذُكِرَ لاسِيَّما على رِوايةِ مَنْ رَوَى (فلَوْ تسألُ ٱلأيَّامُ). ومِنْ جَيِّدِ ما سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وأظُنُّهُ لِابْنِ ٱلرُّوميِّ في عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمانَ بْنِ وَهْبٍ ورأيتُ مَنْ يَرْويهِ لِأحْمَدَ بْنِ مُحمَّدٍ ٱلكاتِبِ أبي ٱلحَسَنِ:

إذا أبو قاسِمٍ جادَتْ يَداهُ لَنا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلأجْوَدانِ ٱلبَحْرُ وٱلمَطَرُ
وإنْ أضاءَتْ لَنا أنْوارُ غُرَّتِهِ
تَضاءَلَ ٱلنَّيِّرانِ ٱلشَّمْسُ وٱلقَمَرُ
وإنْ مَضى رَأْيُهُ أوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تأخَّرَ ٱلماضِيانِ ٱلسَّيْفُ وٱلقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ ما ٱلمُزْعِجانِ ٱلسَّيْفُ وٱلحَذَرُ
يَنالُ بِٱلظَّنِّ ما يَعْيا ٱلعِيانُ بِهِ
وٱلشَّاهِدانِ عَلَيْهِ ٱلعَيْنُ وٱلأثَرُ
كأنَّهُ وزِمامُ ٱلدَّهْرِ في يَدِهِ
يَرى عَواقِبَ ما يأتي وما يَذَرُ

قالَ خَلَفٌ ٱلأحْمَرُ: أخْلَبُ ٱلمَدْحِ وأكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أبي سُلْمى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنتَ سَائِلُهْ

أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ

يُعَذِّبْنَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ

فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ

بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ

هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ   وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَ ٱللّٰهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ :

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ   مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ   شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا   يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً   وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ   فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا   رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ :

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا   فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا :

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ. فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

إِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا   بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ: أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ   كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ أَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ   جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ: قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا   وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ:

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ   وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَنَحْنُ إِذَا عُدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا   مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ:

فَاِذَا نَظَرْتَ رَاَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا   وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلاَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ اَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ اَقْسَمَتْ

عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَاَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

اِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً

هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ اَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

اِذَا مَا اَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلاِفْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْاَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ   بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ

وَاِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ   فَتَاةٌ بِعِقْدٍ اَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَونَ اِلَى قَوْمٍ اُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَاَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ اَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلاِفْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ اِلَّا عِنْدَ اَوَّلِنَا   وَلَا تَغِيبَنَّ اِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ اَنْكَرَ قُدَامَةُ اَنْ يُمْدَحَ ٱلاِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ اَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِاَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

---

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ:

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ:

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ ... وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٌ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءُ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِٱخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى ٱللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنَ ٱلْفَخْرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ

يَفْخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خَزِيمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ

أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ قَبْلُ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ

ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَرَاوِيدِ

سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .
وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْسِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذَقَاتِ فِينَا يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَمْذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيسَ بَيْنَ ٱلرِّثَاء وَٱلْمَدحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِٱلرِّثَاء شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهِ مَيتٌ مِثْلَ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ أَوْ مَا شَاكَلَ ذٰلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَيتٌ. وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاء أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلأَسَفِ وَٱلِاسْتِعْظَامِ. إِنْ كَانَ ٱلْمَيتُ مَلِكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ

وَلَمْ تَلْفِظِ ٱلْمَوْتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تَزَلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ بَذِيُّ ٱلْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاء ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْجِلَّةِ وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ: (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا: أَنْعَاهُ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ثُمَّ قَالَ: (فَكَأَنَّنِي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانِ) يُرِيدُ إِنِّي بِمُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِٱلْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ يُنْكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهٰذَا مَعْنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفْظٍ رَدِيٍّ غَيْرِ مُعْرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ. وَمِنْ أَفْضَلِ ٱلرِّثَاء قَوْلُ

الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة ويروى لابن ابي حفصة:

فيا قبر معن انت اول بقعة
من الارض خطت للسماحة موضعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا

بلى قد وسعت الجود والجود ميت
ولو كان حيا عشت حتى تصدعا

فتى عيش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وممّا قصّر به ابو تمام في رثائه محمد بن حميد بالقصيدة التي يقول فيها:

الا في سبيل الله من عطلت له　　فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

وقد اجاد ايضا في القصيدة التي رثى بها ادريس بن بدر يقول فيها:

ولم انس سعي الجود خلف سريره　　بأكسف بال يستقل ويظلع

وابو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء ومثله ديك الجن وهو اشهر في هذا من ابي تمام له فيه طريق قد انفرد بها قال في عبيد الله بن سليمان بن وهب:

قد استوى الناس ومات الكمال　　وصاح صرف الدهر اين الرجال

هذا ابو القاسم في نعشه　　قوموا انظروا كيف تسير الجبال

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا ٱلْأَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعِزَّةِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْأُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَأَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْأَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي آبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ أَوَّلُهَا:

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ ٱلْأَمَلْ ... وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَأَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا أَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي أَوَّلِهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ خَالِدٍ:

أَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْأَحْوَلِ أَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِأَبِي مُحَاقَةَ أَعْشَى بَاهِلَةَ إِنَّمَا هِيَ لِأَبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وأسمها الدعجاء. والحاصل أن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب في الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلّا قصيدة دريد. وأنا أقول إنه الواجب في الجاهلية والإسلام إلى وقتنا هذا ومن بعده لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن النسيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ بثاره وأدرك طائلته

ومن العجيب أن يقول عبدة بن الطيب في تأبين قيس بن عاصم المنقري:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

ويقول الكميت في تأبين النبي هذا القول فهلا قال مثل قول فاطمة:

اغبر آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران

والنساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك لما ركب الله تعالى في طباعهن من ضعف العزيمة

فانظر إلى قول جليلة بنت مرة ترثي زوجها كليبا حين قتله أخوها جساس ما أشجى لفظها وأظهر الفجيعة فيه وكيف يثير الأشجان ويقدح شرر النيران وذلك:

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا تعجلي باللوم حتى تسألي

ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات. ألا ترى ما صنعوا بأبي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ مُحَلٌّ مُجَرَّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ . هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعْفِي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكِ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكِ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلِاسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكِ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فَضَاءٌ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرْ

ٱللّٰهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَٱصبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَّ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ ٱللهِ فَفَارَقتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ ٱلأُمُورِ:

فَٱصبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلمُلكِ أَصْفَاكَا

لَا رُزْءَ أَصبَحَ فِي ٱلأَيَّامِ نَعلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلبَيتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلفَضلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلأَمِينِ:

تَعَزَّ أَبَا ٱلعَبَّاسِ عَنْ خَيرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ

حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ

وَفِي ٱلحَيِّ بِٱلمَيِّتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا ٱلمُلكُ مَغبُونٌ وَلَا ٱلمَوتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنتَ مَغبُونٌ. وَٱتَّبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا ٱلوَاثِقِ بَعْدَ ٱلمُعتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلكَلَامَ حَيثُ شَاءَ وَأَطنَبَ كَمَا أَرَادَ وَٱحتَجَّ وَأَسهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعرِ. وَأَرَادَ ٱبنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفسِهِ ٱلتَّقصِيرَ فَٱقتَصَرَ عَلَى:

قَدْ قُلتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصطَفَقَتْ عَلَيكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ

إِذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلمُعِينُ كُنتَ عَلَى ٱلدُّ م نيَا وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللّهُ أُمَّـةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْـلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْـلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْـدَ ٱلْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَإِنَّ مَكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْـدُهُ
لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْثِيَّـةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَـاةً كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

ٱلعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلعَـلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

اَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلعَيْنُ يَا عُمَرْ   فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيــكَ بِٱلْاَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا   فَاِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ سَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

اَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّــةً   لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا   بَعْـدَ يَقِينِي اَنَّهَا حَاصِـلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَـا   آجِـلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِـلَهْ
لٰـكِنَّمَا اَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي   اَيَّامُ عُمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلعِتَابُ اَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ اِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسهِ)

وَاِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلوَفَاءِ فَاِنَّهُ بَابٌ مِنْ اَبْوَابِ ٱلخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ اَسْبَابِ ٱلقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَاِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْاُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَاِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاحْتِجَاجُ وَٱلِانْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِاجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاعْتِذَارُ وَٱلِاعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا

وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا

أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا

وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا

أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا

ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا

وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا

يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا

أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ ... تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا

أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِيَ فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ ... هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فَهٰذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَأَنَّهُ ... طِعَانٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايِلًا ... لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً ... عَلَيَّ إِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ ... مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَٱللهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ ... لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

أَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَأَتَّقِي ... شَمَاتَ ٱلْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْأَنْسَابُ إِنْ لَمْ تَعِزْ لَهَا

قُوًى أَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ

سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ

وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ

وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا

وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَإِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا ... وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مُنَحْتُكَهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ ... وَتَبْعَثُ أَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تُرَدُّ قَوَافِيهَا اِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ   هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ

فَكَيْفَ اِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا   تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ   سَحَابَتُهَا اَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا

فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ اَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا   وَاِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا

مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ اَنَّنِي   ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

اِلَى اَنْ يَقُولَ :

سَاَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ   اِذَا اَطَّرَدَ ٱلْقِيَاسُ اَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا . عَلَى اَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ اِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلُ   وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُنْعِمُ

وَبَدْرٌ اَضَاءَ ٱلْاَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا   وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ اَسْوَدُ اَقْتَمُ

وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى   وَلٰكِنَّهَا ٱلْاَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَاَمَّا اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْاَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا اَعْدَلَ ٱلنَّاسِ اِلَّا فِي مُعَامَلَتِي   فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَاَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ

اُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً   اَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وَمَا ٱنْتِفَاعُ اَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ   اِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْاَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيتَ نُيُوبَ ٱللَّيثِ بَارِزَةً　　فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيثَ مُبتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلجُودَةِ غَيرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلقُبحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَومٍ يَنتَقِصُونَهُ عِندَ سَيفِ ٱلدَّولَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشعَارِهِ . وَٱلإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيفِ ٱلدَّولَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعدَ أَبيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَينَا أَنْ نُفَارِقَهُ　　وِجدَانُنَا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُمْ عَدَمُ

مَا كَانَ أَخلَقَنَا مِنكُمْ بِتَكرِمَةٍ　　لَوْ أَنَّ أَمرَكُمُ مِنْ أَمرِنَا أَمَمُ

وَبَينَنَا لَوْ رَعَيتُمْ ذَاكَ مَعرِفَةٌ　　إِنَّ ٱلمَعَارِفَ فِي أَهلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ

كَمْ تَطلُبُونَ لَنَا عَيبًا فَيُعجِزُكُمْ　　وَٱللّٰهُ يَكرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلكَرَمُ

مَا أَبعَدَ ٱلعَيبَ وَٱلنُّقصَانَ مِنْ شَرَفِي

أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيبُ وَٱلهَرَمُ

وَلَيسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ كَادَ يُقتَلُ بَعدَ ٱنصِرَافِهِ مِنْ مَجلِسِ إِنشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلأَكفَاءِ وَأَهلِ ٱلمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنهُ قَولُ إِبرَاهِيمَ بنِ عَبَّاسٍ ٱلصَّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بنَ عَبدِ ٱلمَلِكِ ٱلزَّيَّاتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ　　فَلَمَّا نَبَا صِرتَ حَربًا عَوَانَا

وَكُنتُ أَذُمُّ إِلَيكَ ٱلزَّمَانَ　　فَأَصبَحتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا

وَكُنتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ　　فَهَا أَنَا أَطلُبُ مِنكَ ٱلأَمَانَا

وَهٰذَا عِندِي مِنْ أَشَدِّ ٱلعِتَابِ وَأَوجَعِهِ . وَمِنْ أَكرَمِ ٱلعِتَابِ قَولُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاء

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ ... إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتُنْكَبَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ ... ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
اَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْاَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيِّنُ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

اَلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً   مِنْ اَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْاُمُورِ مُعَاتِبًا   صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسهِ)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ   تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا

اَاَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَاِنَّنِي   اَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا

اَاَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً   بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا

فَاَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَاِنَّهَا   كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا   فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَاَصْلُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلتَّغْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ . وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ :

اَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ   اِنِّي اَخَافُ عَلَيْكُمُ اَنْ اَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا اَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا :

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا اَبَا لَكُمُ   لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ :

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى اَنَّهُ   لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا اَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ   وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ اَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ اَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ اَنَّهُ قَالَ : خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ :

لَوْ اَنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ اَحْسَابَهَا   يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي شِعْرًا عَلَى مَدْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَٱللّٰهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَشَدُّ ٱلْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا ٱلْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَأَمَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حُسًا سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فقالَ : أَفحَشتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ: أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ: لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ: لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

---

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

انْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ .
وَلِهٰذِهِ ٱلعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ
ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ
رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى ... يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْأَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ إِتْلَافُ مَالِهِ ... وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ ... وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَٱلِٱسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَإِنَّمَا ... يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ انْتُمُ ... وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ ٱلْأَعَاصِرِ
أَأَنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا ... فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ ... بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا ... وَضَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلِٱحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ ... وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هِفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ ... وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ:

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ اَضَرَّ بِهِ ... شَوْقٌ اِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ ... يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

اَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ: اَيُّ اَصْحَابِي كَانَ اَشَدَّ اِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ: مَا اَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ اَعْرِفُ اَقْفَاءَهُمْ. وَاَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَسْلُبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا. فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَاِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ اِنِّي وَاَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا اِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ:

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ ... مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ. وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ بِعَيْنِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسهِ)

وَيَنْبَغي الشَّاعِرِ اَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ اَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنِ اُضْطَرَّهُ ٱلمِقْدَارُ اِلَى ذٰلِكَ وَاَوْقَعَهُ فِيهِ ٱلْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ ٱلْمُعْتَذَرِ اِلَيْهِ مِنْ بَابِ ٱلِاحْتِجَاجِ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَحَقُّهُ اَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرَّجًا فِي ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ ٱلْمُلُوكِ وَاِعَادَةِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْحَاسِدِ فَامَّا مَعَ ٱلْإِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ اُخْرَى وَقَدْ اَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْاَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ اَسَأْتُ فَبِٱلنُّعْمَى ٱلَّتِي سَلَفَتْ ... اِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ اَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ اِلَيْهِ :

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا اَقُولُ فَاِنَّهَا ... جَهْدُ ٱلْاَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا اِنْ عَصَيْتُكَ وَٱلْغُوَاةُ تُمِدُّنِي ... اَسْبَابُهَا اِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ اَبُو عَلِيٍّ ٱلْبَصِيرُ مَذْهَبَ ٱلْحُجَّةِ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ بَعْدَ اِرْتِكَابِ ٱلْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ اَجْنِ ذَنْبًا فَاِنْ زَعَمْتَ بِاَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ فَقُلْتُ :

لا يُبعِدِ ٱللهُ أَبَا جعفرٍ دعَابَةٌ بتَّ على نارِهَا
وَإِنْ تأذَّيتَ فيا رُبَّمَا تأذَّتِ ٱلعَيْنُ بأشفارِهَا

وَأَجلُّ مَا وقعَ فِي ٱلإعتذارِ مِنْ مَشهوراتِ ٱلعربِ قصائدُ ٱلنابغةِ ٱلثَّلاثُ إِحدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلعَلياءِ بِٱلسَّنَدِ» يقولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمرُ ٱلَّذِي مَسَّحتُ كَعبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلأَنصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلمُؤمِنِ ٱلعَائِذَاتِ ٱلطَّيرَ تَمسَحُهَا رُكبَانُ مَكَّةَ بَينَ ٱلغِيلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلكَبِدِ
أُنبِئتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعتَذِرًا مِنْ مَدحِ آلِ جَفنَةَ وَمُحتَجًّا بِإِحسَانِهِمْ إِلَيهِ:

حَلَفتُ فَلَمْ أَترُكْ لِنَفسِكَ رِيبَةً وَلَيسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ
لَئِنْ كُنتَ قَدْ بُلِّغتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبلِغُكَ ٱلوَاشِي أَغَشُّ وَأَكذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنتُ ٱمرَأً لِيَ جَانِبٌ مِنَ ٱلأَرضِ فِيهِ مُستَرَادٌ وَمَذهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخوَانٌ إِذَا مَا أَتَيتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَموَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعلِكَ فِي قَومٍ أَرَاكَ ٱصطَنَعتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكرِ ذٰلِكَ أَذنَبُوا
فَلَا تَترُكَنِّي بِٱلوَعِيدِ كَأَنَّنِي إِلَى ٱلنَّاسِ مَطلِيٌّ بِهِ ٱلقَارُ أَجرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبذَبُ
بِأَنَّكَ شَمسٌ وَٱلمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرتَنَا فَٱلفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

تُكَلِّفُنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذَّبٌ
وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَلِقَ بِهٰذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكِ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكِ لِي إِلَّا إِلَيْكِ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهٰذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بِهٰذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِاعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ

فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللّٰهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ أَحْمَرَ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِانْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اي جعلتُ لها عِذارًا يَحْجُزُها مِنَ ٱلشِّرَادِ فمعنى ٱعتذرَ ٱلرَّجُلُ ٱحتجزَ وعذرتُهُ جعلتُ لَهُ حاجزًا بينَهُ وبينَ ٱلعقوبةِ اوِ ٱلعتبِ ومنهُ تعذَّرَ ٱلامرُ وٱحتجزَ ان يُقضَى ومنهُ جاريةٌ عَذْراء

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كانَ ٱلاعشى اسيرَ ٱلنَّاسِ شِعرًا واعظمَهم فيهِ حظًّا حتَّى كادَ يُنسِي اصحابَهُ ٱلمذكورينَ معهُ وقبلَهُ زُهيرٌ وٱلنابغةُ وٱمرؤُ ٱلقيسِ وكانَ جريرٌ باقعةً سائرَ ٱلشعرِ مُظفَّرًا . قالَ ٱلاخطلُ للفرزدقِ وانا وٱللهِ اشعرُ مِن جريرٍ غيرَ انَّهُ رُزقَ مِن سَيْرُورةِ ٱلشعرِ ما لم أُرزَقْهُ وقد قلتُ بيتًا لا احسبُ احدًا قالَ اهجا منهُ

وليسَ مِنَ ٱلعربِ قبيلةٌ إلَّا وقد نِيلَ مِنها وعُيِّرَتْ وهُجيَتْ فحطَّ ٱلشعرُ منهم بعضًا بموافقةِ ٱلحقيقةِ ومضى صفحًا على ٱلآخرينَ لمَّا لم يُوافِقِ ٱلحقيقةَ ولا صادفَ موضعَ ٱلريبةِ . فمنَ ٱلذينَ لم يُحكْ فيهم هجاءٌ إلَّا قليلًا على كثرةِ ما قيلَ فيهم تميمُ بنُ مُرَّةَ وبكرُ بنُ وائلٍ وأسدُ بنُ خزيمةَ ونظراؤُهم مِن قبائلِ ٱليمنِ . فأمَّا مَن شُقُّوا بٱلهجاءِ ومُزِّقُوا كلَّ مُمزَّقٍ على تقدُّمِهم في ٱلشجاعةِ وٱلفضلِ احياءٌ مِن قيسٍ نحوَ غنيٍّ وباهلةَ بنِ اعصُرَ بنِ سعدِ بنِ قيسِ بنِ غيلانَ وٱسمُ غنيٍّ

عمرٌ و وكانوا موالي عامر بن صعصعة يحملون عليهم الدبّات والنوائب ونحوَ محاربِ بن خصفةَ بنِ قيس بن غيلانَ وجسر بن محاربٍ ومن ولدِ طابخةَ بنِ الياس بن مضرَ تيمٌ وعكلٌ ابنا عبدِ مناةَ وقع عليهم السبُّ في الجاهليّةِ فاستهانتِ العربُ بهم وانطبع الهجاء فيهم وعدِيُّ بنُ عبدِ مناةَ كانوا قطيناً لحاجبِ بنِ زرارةَ وارادَ ان يستملكهم ملكَ رقٍّ بسجلٍّ من قِبلِ المنذرِ . والحبطاتُ وهم ولدُ الحارثِ بنِ عمرِو بنِ تميمَ وسُمّي الحبطَ لعظمِ بطنِه شبّهوهُ بالجملِ الحبِطِ وهو الذي انتفخ بطنُهُ من كلإٍ يستوبله . فامّا السَّلول فقد قال فيهم ابو زيادٍ الكلابيُّ : كرامٌ من كرامِ صعصعةَ لم يخالفوا في امرٍ ولم يدخلوا في صغارٍ وانّما كلمةُ عامرِ بنِ الطفيلِ هي التي شامتْهم يريدُ قولَهُ : اغدّةً كغدّةِ البعيرِ وموتاً في بيتِ سلوليّةٍ . قلتُ امّا عامرٌ فقد قال هذهِ الكلمةَ حينَ دعا عليهِ الرسولُ فما يصنعُ بقولِ السموألِ بنِ عادياء :

وانّا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبّةً إذا ما رأتهُ عامرٌ وسلولُ

والسموألُ في زمانِ امرئِ القيسِ وبينَ امرئِ القيسِ ومبعثِ الرسولِ مئةٌ واربعٌ وخمسونَ سنة . قال الجاحظُ لم يُمدحْ قبيلةٌ في الجاهليّةِ من قريشٍ كما مُدحت مخزومٌ . قال وكانَ عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ اخطأ في الشعرِ من كثيرٍ من خلفائهم . وما اعلمُ في الأرضِ نعمةً بعدَ ولايةِ اللهِ اعظمَ من ان يكونَ الرجلُ ممدّحا . قلتُ انا : امّا هذهِ النعمةُ فقد احلّها اللهُ مضاعفةً

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِٱلِٱسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَأَحْيَا ٱللّٰهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ   نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا   فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ   وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا   قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرَ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ   بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِأَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَأَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

أَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ   وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْأَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ   حَتَّى نُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَأَنَّهُمْ   فِي ٱلْعِزِّ أُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ   كَبَنِي زُرَارَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمُ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمَ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمَجْدُودُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ عَنْعَ :

تَعَالَى ٱللهُ يَا مُسْلِ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبُو ٱلعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ اَبِي حَفْصَةَ أُعطِيَ مِائَةَ اَلفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ اِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ . وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ اِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمِحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْاِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ اَحْنَفَ . وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ . وَامَّا اَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِّيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْاَرْضَ وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنْشَدَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ اَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ اِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ :

تُضَيِّفُنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْاَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ مِنَ ٱلْاَرْضِ اِلَّا وَهْوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونَ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : اَتَسْبُقُنِي اَنْتَ اِلَى ٱلْاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِّئْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي . وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ :

أَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذَلِكَ ٱلْأَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْإِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسُّهَامُ وَلَا سُهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ . قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سُهَامٌ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قُبَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ :

أُولَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : أَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ : لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ أَيْ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ :

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى :

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ :

فَجُنِّبْتَ ٱلْجُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى اَنَّ اَبَا زَيْنَبَ قَالَ: اِنْ دَعَا لَهُ فَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَافَى مِنَ اَلْجُيُوشِ وَاَنْ يَجُودَهُ اَلسَّحَابُ فَتُخْصِبَ اَرْضُهُ وَاِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ: لَا اَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ اَلْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ اَلْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِاَنْ تَدْرُسَهَا اَلْاَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ: اِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ اَلسَّحَابُ فَاَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ اَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ اَلْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ اَلْآخَرِ:

وَخَيْفَاءَ اَلْقَى اَللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

اَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ. وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ اَللّٰهِ اَيْضًا:

اِنِّي عَلَى كُلِّ اِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ اَدْعُو خَبِيثًا كَمَا تُدْعَى اَبْنَةُ اَلْجَبَلِ

وَرَوَى اَلْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ اَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَا وَهُوَ اَبْنَةُ اَلْجَبَلِ وَقِيلَ اَبْنَةُ اَلْجَبَلِ اَلصَّخْرَةُ اَلْمُنْحَدِرَةُ مِنْ اَعْلَاهُ. وَزَادَ اَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

اِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ عَارِي اَلْاَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ اَلْآخَرِ:

كَاَنِّي اِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ اَلْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ اَلْاَوَّلِ فِي سُرْعَةِ اَلْاِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ اِلَى اَلثِّقَلِ عَنْ اِجَابَتِهِ مِثْلَ اَلْجِبَالِ . وَمِنَ اَلدُّعَاءِ اَلَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا اَلْبَابِ:

تفرَّقتْ غنمي يومًا فقلتُ لها يا ربِّ سلِّطْ عليها ٱلذئبَ وٱلضبعا

قِيلَ إِنهما إِذا ٱجتمعا لا يُؤْذِيانِ وشغلَ كلٌّ مِنهما ٱلآخرَ وإِذا تفرَّقا آذيا وقِيلَ: إِنَّ معناهُ فِي ٱلدُّعاءِ عليها: قتلَ ٱلذئبُ ٱلأحياءَ عبثًا وأكلتِ ٱلضبعُ ٱلأمواتَ فلمْ يبقَ مِنها بقيَّةٌ. ومِنْ لطِيفِ ما وقعَ فِي هٰذا ٱلبابِ قولُ ٱلنابغةِ ٱلذُّبيانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشاعِرُ ٱلثُّنْيانُ عنِّي صُدُودَ ٱلبَكْرِ عنْ قَرْمِ ٱلهِجانِ

ولمْ يُرِدْ أنَّهُ يغلِبُ ٱلثُّنْيانَ ولا يغلِبُ ٱلفحلَ لكِنْ أرادَ ٱلتصغيرَ بِٱلَّذِي هاجاهُ فجعلهُ ثُنْيانًا. وقالَ آخرُ:

ومَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أبي وجدِّي يَجِي قَبْلَ ٱلسَّوابِقِ وهْوَ ثانِ

أرادَ وهْوَ ثانٍ مِنْ عِنانِهِ لا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا. ومِمَّا يُمدَحُ بِهِ ويُذَمُّ قولُهُمْ بَيْضَةُ ٱلبلدِ فمَنْ مدحَ أرادَ أنَّها أصلُ ٱلطائِرِ ومَنْ ذمَّ أرادَ أنَّها لا أصلَ لها. قالتْ أُختُ عمرِو بنِ عبدِ وُدٍّ فِي عليٍّ لمَّا قتلَ أخاها:

لوْ كانَ قاتِلُ عمرٍو غيرَ قاتِلِهِ لقدْ بكيتُ عليهِ آخِرَ ٱلأبدِ

لكِنَّ قاتِلَهُ مَنْ لا يُعابُ بِهِ مَنْ كانَ يُدعَى قديمًا بيضةَ ٱلبلدِ

فهٰذا امدحُ كما تراهُ وقالَ ٱلراعِي ٱلنُّميرِيُّ يهجُو عدِيَّ بنَ ٱلرِّقاعِ ٱلعامِلِيَّ:

لوْ كُنتَ مِنْ أحدٍ تُهجَى هجَوْتُكُمُ

يا ٱبنَ ٱلرِّقاعِ ولٰكِنْ لستَ مِنْ أحدِ

تأبَى قُضاعةُ أنْ ترضَى بِكُمْ نسبًا

وٱبنا نِزارٍ فأنتُمْ بيضةُ ٱلبلدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذَكَرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلْأَرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأْيِيدُ . وَٱلْأَرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ:

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ اَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ اَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ اَنْفِهِ
اِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْاَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ
اِذَا شَغَلَ ٱلْاَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَاَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَاِنَّهُ يُقَالُ اَتَى بِهَا كَالْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ. وَقِيلَ: اَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ اَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْاِرْتِجَالِ وَهُوَ اَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْاِرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي اِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَاَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا اَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي اَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رماكم امير المؤمنين بحيَّة ... أكول لحيات البلاد شروب

فان يك باقي سحر فرعون فيكم ... فان عصا موسى بكف خطيب

ثم التفت اليه : والله لا يأتي بمثلها خطيب مصقع فكيف رأيت فاعتذر اليه فحلف : ان كنت الا مازحا . وسمعت جماعة من العلماء يقولون : كان مسلم بن الوليد نظير ابي نواس في وقوفه عند قوم من اهل زمانه في اشياء الا ان ابا نواس قهر بالبديهة والارتجال مع تقبض كان في مسلم واظهار توقد وكان صاحب فكرة وروية لا يبتده ولا يرتجل فكان ابو العتاهية فيما يقال اقدر الناس على ارتجال وبديهة لقرب مأخذه وسهولة طريقه

واجتمع عدة من الشعراء فيهم ابو نواس فشرب احدهم ماء ثم قال اجيزونا : برد الماء وطابا . فكلهم تلعثم حتى طلع ابو العتاهية . قال : فيم انتم فانشدوه . فقال وما تردد : حبذا الماء شرابا . فاتى بالقسيم شبيها بصاحبه . وذلك هو الذي اعوز القوم لا وزن الكلام . وصحب رفقة فسمع زقاء الديوك . فقال لرفيقه : هل رأيت الصبح لاحا . قال نعم . قال : وسمعت الديك صاحا . قال نعم . قال :

انما بكى على المغـ ... ـترّ بالدنيا وناحا

فاستيقظ رفيقه للكلام انه شعر فرواه . فما جرى هذا المجرى فهو الارتجال . واما البديهة فبعد ان يفكر الشاعر يسيرا ويكتب

سَرِيعًا اِنْ حَضَرَتْ آلَةُ اِلَّا اَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَاِنْ اَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ اَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يُعَدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا اجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلرَّشِيدِ فَاَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا ٱلْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: ٱلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ ٱلْجَمَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ اِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: اَحْسَنْتَ وَاَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَاَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ كَثِيرَ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ اِلَّا اَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ ٱلْفَنَدِ اِذْ كَانَتِ ٱلْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ   وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا   لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْقَوْلُ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْفُهُ   شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي ٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ ٱلْاَمْنِ وَٱلْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَاْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ ٱلْخَشْرَمِ ٱلْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ ٱلْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ ٱلسَّعْدِيِّ اِذْ يَقُولُ وَقَدْ اَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي اَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي اَسَدٍ اِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا   تَمِيمًا اِذَا ٱلْحَرْبُ ٱلْعَوَانُ ٱشْمَعَلَّتِ

وَلَسْتُ وَاِنْ كَانَتْ اِلَيَّ حَبِيبَةً   بِبَاكٍ عَلَى ٱلدُّنْيَا اِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا أَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ　　أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ　　نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ　　وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ لَمَّا أَيْقَنَ بِٱلْمَوْتِ :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي

وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي ٱلطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَٱسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَأَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ ٱلصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي ٱلسِّنِّ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ ٱلنُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : أَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ ٱلْجَرِيضُ دُونَ ٱلْقَرِيضِ . قَالَ : أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُبَيْدُ　　فَٱلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَقَةِ بَعْضِ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعِرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبِطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حِكَمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ انِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجَّهُ ابْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ابِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ احَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ ... يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَٱعْتَدَى ... لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِٱتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ انَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ٱلْقُوَّةَ عَلَى ٱلنُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ ٱلآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ ٱلْعَجَّاجِ عَنِ ٱلْفَحْلِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ ٱلرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى ٱسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَٱسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِٱلسِّحْرِ . وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ ٱلشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ ٱلشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ وَيَسْمَعَ ٱلْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ ٱلْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ ٱلْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَٱلنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَٱلنَّسَبَ وَأَيَّامَ ٱلنَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَنَاقِبِ وَٱلْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ٱبْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ ٱلنَّمَرِيُّ وَٱسْمُهُ ٱلْهَيْثَمُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَأَنْطَقِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِٱلْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ اشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى انْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ . وَإِذَا آعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى انْ يَكُونَ اوْثَقَ سِهَامًا وَاحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ اوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَاوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ اطْرَبَ وَاسْمَعَ وَإِنْ هَجَا اقَلَّ وَاوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ اغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مَقام مَقالٌ . وشعرُ الشاعرِ لنفسهِ وفي مُرادِهِ وأُمورِ ذاتِهِ مِنْ مدحٍ وغزلٍ ومكاتبةٍ ومُجونٍ وخمريّةٍ وما أشبهَ ذلكَ غيرُ شعرِهِ في قصائدِ الحفلِ التي يقومُ بها بينَ السماطينِ . يُقبلُ منهُ في تلكَ الطريقِ عفوُ كلامِهِ وما لا يتكلّفُ لهُ ولا ألقى بهِ بالًا ولا يُقبلُ منهُ في هذهِ إلّا ما كانَ مُحكَكًا مُعاودًا فيهِ النظرُ جيّدًا لا غثَّ فيهِ ولا ساقطَ ولا قلقَ . وشعرُهُ للأميرِ غيرُ شعرِهِ للوزيرِ والكاتبِ ومخاطبتُهُ للقضاةِ والفقهاءِ بخلافِ ما تقدَّمَ مِنْ هذهِ الأنواعِ .

والمتأخرُ مِنَ الشعراءِ في الزمانِ لا يضرُّهُ تأخُّرُهُ إذا أجادَ كما لا ينفعُ المتقدِّمَ تقدُّمُهُ إذا قصَّرَ وإنْ كانَ لهُ فضلُ السبقِ فعليهِ دركُ التقصيرِ كما أنَّ للمتأخّرِ فضلَ الإجادةِ والزيادةِ . ولا يكونُ الشاعرُ حاذقًا مُجوِّدًا حتّى يتفقَّدَ شعرَهُ ويُعيدَ فيهِ نظرَهُ فيُسقِطَ رديَّهُ ويُثبِتَ جيِّدَهُ ويكونَ بالرّكيكِ مُطّرِحًا لهُ راغبًا عنهُ . فإنَّ بيتًا جيّدًا مقامَ ألفِ رديٍّ . وقالَ امرؤُ القيسِ وهوَ أوّلُ ما زعموا أنّهُ اختيرَ لهُ وعُلِمَ بهِ أنّهُ أفضلُ الشعراءِ والمقدَّمُ عليهم :

أذودُ القوافيَ عنّي ذيادا ذيادَ غُلامٍ جريٍّ جرادا

فلمّا كثُرنَ وعنَّينَهُ تخيَّرَ منهنَّ ستًّا جيادا

فأعزلُ مرجانَها جانبًا وآخذُ مِنْ دُرِّها المستجادا

ويُقالُ إنَّ أبا نُواسٍ كانَ يفعلُ هذا الفعلَ ويُبقي الجيِّدَ ويلتمسُ لهُ مِنَ الكلامِ ما سهلَ ومِنَ المعنى ما كانَ واضحًا جليًا

يُعرَفُ بديًّا. فقد قالَ بعضُ ٱلمتقدّمين: شرُّ ٱلشعرِ ما سُئِلَ عنهُ. وكانَ ٱلحُطَيئةُ يقولُ: خيرُ ٱلشعرِ ٱلحوليُّ ٱلمُحكَّكُ. اخذَ في ذلكَ بمذهبِ زُهَيرِ بنِ ابي سلمى واوسٍ وطُفَيلٍ. ولا يجوزُ للشاعرِ كما لا يجوزُ لغيرِهِ ان يكونَ مُعجَبًا بنفسهِ مُثنِيًا على شعرِهِ وانَّ فضيحةً ظاهرةً كانَ غنيًّا عنها. وكانَ في ٱلبحتريّ اعجابٌ شديدٌ اذا انشدَ يقولُ: ما لكم لا تعجبونَ ما احسنَ ما تسمعونَ. فانشدَ ٱلمتوكّلَ يومًا قصيدتَهُ:

عَنْ ايِّ ثغرٍ تبتسِمْ   وبايِّ طرفٍ تحتكِمْ

وابو ٱلعبّاسِ ٱلصيمريُّ حاضرٌ فلمّا رأى إعجابَهُ قامَ حِذاءَهُ وقالَ:

مِنْ ايِّ سلحٍ تلتقِمْ   وبايِّ كفٍّ تلتطِمْ

فولّى وهوَ غضبانُ. فقالَ: وعلمتُ انّكَ تنهزِمْ. فضحكَ ٱلمتوكّلُ حتّى فحصَ برجليهِ واعطى ٱلصيمريَّ جائزةً سنيّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لا بُدَّ للشاعرِ وانْ كانَ فحلًا حاذقًا مُبرِّزًا مُقدَّمًا مِنْ فترةٍ تعرِضُ لهُ في بعضِ ٱلاوقاتِ إمّا لشُغلٍ طرأَ او موتِ قريحةٍ او نُبوِّ طبعٍ في تلكَ ٱلساعةِ او ذلكَ ٱلحينِ. وقد كانَ ٱلفرزدقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ أَضْرَاسِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَإِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ إِذَا ٱنْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ ٱلْبِئْرِ إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ . وَأُفْحِمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى أُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحْمِ ٱلصَّبِيِّ إِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِأَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْإِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ أَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى ٱلرَّامِي إِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِيِّ فِي ٱلشِّعْرِ وَذِكْرِ أَشْجَعَ ٱلسُّلَمِيِّ فَقَالَ : إِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَأَنِفْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا ٱنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْأَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ إِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى لكل امرئ بحسب تدبير طبعه واطراد عادته. وسيأتي ذلك في اقاويل العلماء بما ارجو ان يكون فيه هداية ان شاء الله تعالى

قال بكر بن النطاح الحنفي: الشعر مثل عين الماء ان تركتها نضبت وان استهتنتها هتنت. وليس مراد بكر ان تستهتن بالعمل وحده لانا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارًا وتنزف مادته وتنفد معانيه فاذا جم طبعه اياما وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة واتهم بكل قافية شاردة وفتح له من المعاني والالفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وابهم دونه. لكن بالمذاكرة مرة فانها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفتنة وبمطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الجسد وتولد الشهوة. وسئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر. فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه. قيل له: وعنه سألتك ما هو. قال: الخلو بذكر الاحباب ولعمري انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب وحط رجله في الركاب على ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال ونادب اظعان وهو الذي اخرجه من طبقة الفحول. وقيل لكثير كيف تصنع الشعر اذا عسر عليك. قال: اطوف في الرياض المعشبة فيسهل علي صعبه ويسرع الي

أحسنهُ . وقال الأصمعيُّ : ما استدعي شاردُ الشعرِ بمثلِ الماءِ الجاري والشرفِ العالي والمكانِ الخالي . وقيل الخالي يعني الروض

وحدَّثنا بعض أصحابنا من أهلِ المهديَّة وقد مررنا بموضعٍ بها يُعرف بالكنديَّةِ وهو أشرفها أرضاً وهواءً . قال : جئتُ هذا الموضع مرَّةً فإذا عبدُ الكريمِ على سطحٍ هنالك قد كشفَ الدنيا . فقلتُ : أبا محمدٍ . قال : نعم . فقلتُ : ما تصنع هاهنا . قال : ألقحُ خاطري وأجلو ناظري قلتُ : فهل نتجَ لك شيءٌ . قال : ما تقرُّ بهِ عيني وعينك إن شاء اللهُ تعالى وأنشدَ شعراً يدخلُ مسامَّ القلوبِ رقةً . قلتُ : هذا اختيارٌ منك اخترعتهُ . قال : بل برأي الأصمعيِّ

وقالوا كان جريرٌ إذا أراد أن يؤيّدَ قصيدةً صنعها ليلاً يُشعِلُ سراجاً ويعتزلُ أهلهُ وربّما علا السطحَ وحدهُ وغطّى رأسهُ رغبةً في الخلوةِ في نفسهِ . فحُكي أنهُ صنع ذلك في قصيدتهِ التي أخزى بها بني نُميرٍ

ورُوي أنّ الفرزدقَ كان إذا عصت عليهِ صنعةُ الشعرِ ركبَ ناقةً وطاف وحدهُ منفرداً في شعابِ الجبالِ وبطونِ الأوديةِ والأماكنِ الخاليةِ فيعطيهِ الكلامُ قيادهُ . حُكي ذلك في قصيدتهِ الفائيَّةِ : عُرفتَ بأعشاشٍ وما كِدتَ تعرفُ

وذُكر أنّ فتى من الأنصارِ فاخر بأبياتِ حسّانَ بنَ ثابتٍ :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى

وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَأَنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى: أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لُبَيْنَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ: وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ. فَلِهٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ. وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ ٱللَّهْوِ أَوِ ٱلْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشْأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوَّتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ. قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ فَأَنَيْتَ ذَاكَ نَدًى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ ابي تَمَّامٍ وَاشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ . صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ :

فَقُلْتُ انَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ انْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ انَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ : انَا ابو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ ابْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ :

انَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ ابو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ الْاعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذٰلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا الَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ انْ لَا يَصْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ انِّي لَا اجِدُ ذٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا اقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَتَّةَ بَلْ اصْنَعُ الْقَسِيمَ الْاوَّلَ عَلَى مَا اُرِيدُهُ ثُمَّ الْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْقَوَافِي بَعْدَ ذٰلِكَ فَابْنِي عَلَيْهِ الْقَسِيمَ الثَّانِي افْعَلُ ذٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ ارَ ذٰلِكَ يَخْلُّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِيمِ الْاوَّلِ الَّا فِي النُّدْرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيحِ الْمُفْرِطِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ الَيْهِ بَيْتٌ وَاثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ انْ يَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِابْيَاتٍ وَذٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَانْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ ٱلشِّعْرِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ إِلَّا ٱنْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ أَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَأَطَّرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا ٱنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَأَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدَلُّ عَلَى ٱلْقُدْرِ وَأَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبِرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ . يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ . وَقِيلَ: مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا: ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْحَمَّامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلْأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْحَمَّامِ . وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلْإِسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاخلَى فِي الصُّدُورِ وَاسلَمُ مِنْ فَاحِشِ الخَطَاءِ وَاخلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغِرَّةٍ مِنْ لَفظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اجدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعطِيكَ يَوْمُكَ الاَطْوَلُ بِالكَدِّ وَالمُجَاهَدَةِ وَبِالتَّكَلُّفِ وَالمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اخطَاكَ لَمْ يُخطِئكَ اَنْ يَكُونَ مَقبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى اللِّسَانِ سَهلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَاِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَاِنَّ التَّوَعُّرَ يُسلِمُكَ اِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعقِيدُ هُوَ الَّذِي يَستَهلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلتَمِسْ لَفظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ المَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجلِهِ اَسوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبلَ اَنْ يُلتَمَسَ اِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي اِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَاِنَّ اَوَّلَ الثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . اِمَّا عِندَ الخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ لِلعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلعَامَّةِ قَصَدْتَ وَالمَعْنَى لَيسَ يَشرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الخَاصَّةِ وَكَذٰلِكَ لَيسَ يَتَضَعُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي العَامَّةِ وَاِنَّمَا مَدَارُ الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَاِحرَازِ المَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ الحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ المَقَالِ . وَكَذٰلِكَ اللَّفظُ العَامِّيُّ وَالخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمكَنَكَ اَنْ تَبلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفهِمَ العَامَّةَ مَعَانِيَ

ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلْأُولَى لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْمَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ فِي أَوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْمَحْ إِلَى قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلْمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلْقَافِيَةَ لَمْ تَحُلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ. فَإِنْ أَنتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنتَ أَقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ. فَإِنْ أَنتَ ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ أَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا أَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ اَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ اَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْاِنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْاِمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَاَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى اَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَاَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَاِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعٌ غِنًى قَوِيَ ٱنْبِعَاثُهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً. وَاِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَاَخَذَ مَا اَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ اَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَاِذَا اَوْسَعَ اَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ اَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا. فَٱلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ. وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ ايضًا . وَٱلوُصُولُ اوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلمَقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ
اوَائِلُ ٱلأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ انْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ
اوْ شَبِيهٍ بِهِ اوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَاشَارَ بِهٰذِهِ
ٱلعِبَارَةِ الَى ٱلمَقَاطِعِ اوْ آخِرِ اجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ
ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ امِّ
مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَإِعْطَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ احَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللاَّمُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ امَاكِنَ مِنْهُ
وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللاَّمِ
اللّٰهُمَّ الَّا انْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱليَاءُ ٱلمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى انَّا لَا نَعْلَمُ
حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ الَّا مُتَاخِرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا
فِي انْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ انَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ اوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ
وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِانَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ
اِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِانَّ ٱلقَصِيدَةَ
اِنَّمَا لَهَا اوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا اوَائِلُ وَاوَاخِرُ الَّا
عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلأَبْيَاتِ اوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ: ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ. وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلِٱسْتِعَانَةُ فَقَالَ: أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقاطِعِ كَلَامي . وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي اقْلَلْتُ ٱلْحَقَّ وَاصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَٱلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلْقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ   وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجَمُومَيْنِ سَاهِرَا   وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا   إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ
عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلْكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ مُحِيلُ   عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلْعُقَارُ   وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ   وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلْعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلْفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبنَ عليٍ ٱلخُزاعِيَّ وردَ حِمص فقصدَ دارَ عبدِ ٱلسَّلامِ بنِ رغبانَ ديكِ ٱلجنّ فكتمَ نفسهُ عنهُ خوفًا مِنْ قوارِصِهِ فقالَ: ما لهُ يستتِرُ وهوَ اشعرُ ٱلجنّ وٱلانسِ اليسَ ٱلقائلَ:

بِهَا غيرُ معذولٍ فدا وخمارُها   وهلْ بعشيَّاتِ ٱلغبوقِ ٱبتكارُها

فظهرَ اليهِ وٱعتذرَ اليهِ وٱحسنَ. ثُمَّ تناشدَا فانشدَ ديكُ ٱلجنِّ ٱبتداءَ قصيدةٍ:

كانَّها ما كانَّهُ خللُ ٱلخلَّةِ   وقفُ ٱلهلوكِ انْ بغمَا

فقالَ لهُ دعبلٌ: ٱسكتْ فواللهِ ما ظننتُكَ تُتِمُّ ٱلبيتَ الَّا وقد غُشِيَ عليكَ او تشكَّيتَ دماغكَ وكانَّكَ في جهنَّمَ تُخاطِبُ ٱلزَّبانيةَ او تخبَّطكَ ٱلشيطانُ مِنَ ٱلمسِّ. وانَّما ارادَ ٱلديكُ انْ يُهوِّلَ عليهِ ويقرعَ سمعهُ عسى انْ يُزعِجهُ او يروعهُ فسمعَ منهُ ما كرِهَ. ولعمري ما ظلمهُ دعبلٌ ولقدْ ابعدَ مسافةَ ٱلكلامِ وخالفَ ٱلعادةَ وهذا بيتٌ قبيحٌ مِنْ جهاتٍ منها اضمارُ ما لمْ يُذكرْ قبلُ ولا جرتِ ٱلعادةُ بمثلِهِ فيُعذَرَ ولا كثُرَ ٱستعمالُهُ فيُشهَرَ مع احالةِ ٱلتَّشبيهِ على تشبيهٍ ثقُلَ تجانُسُهُ ٱلذي هوَ حشوٌ فارغٌ لوْ طُرِحَ مِنَ ٱلبيتِ كانَ احزمَ وٱستدعى قافيةً لا لشيءٍ الَّا لفسادِ ٱلمعنى وٱستحالةِ ٱلتَّشبيهِ ما ٱلذي يُريدُ ببُغامِهِ في تشبيهِ ٱلوقفِ وهوَ ٱلسِّوارُ ولِمَ كانَ وقفُ ٱلهلوكِ خاصَّةً. ومثلُهُ قولُ محمَّدِ بنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزَّيَّاتِ يصفُ ناقتَهُ في اوَّلِ قصيدةٍ مدحَ بها ٱلحسنَ بنَ سهلٍ:

كانَّهَا حينَ تناءى خطوُها   اخنسُ مَوْشيُّ ٱلشَّوى يرعى ٱلقُلَلْ

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ ٱلْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا » فَقَصَّرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ ٱلشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ ٱلنَّاقَةَ بِٱلظَّلِيمِ وَٱلْحِمَارِ وَٱلثَّوْرِ بَعْدَ ٱلْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي ٱلْوَصْفِ . هٰذَا هُوَ ٱلْجَيِّدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَٱسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَّعُونَ ٱلتَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ ٱلزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى ٱلْقُلَلَ » وَٱلثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ ٱلْجِبَالِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ ٱلْوَعِلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَٱلثَّوْرُ فِي ٱلسُّهُولِ وَمَوَاضِعِ ٱلرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِٱلنَّبَاتِ أَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا أَنْ يَكُونَ ٱلْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ أَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ إِذَا ٱبْتَدَأَ شِعْرًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّسِيبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهٍ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ أَغِذَاءُ ذَا ٱلرَّشَإِ ٱلْأَغَنِّ ٱلشِّيحُ

فَهٰذَا ٱعْتِذَارُ مَنِ ٱعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي ٱلرِّثَاءِ وَٱلتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ أَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْعَظَائِمِ مِنَ ٱلْأُمُورِ وَٱلنَّوَازِلِ ٱلشَّدِيدَةِ . وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ ٱمْتَدَحَ أَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَٱفْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ ٱلرَّجُلُ لَعَنَهُ ٱللهُ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلنَّاسُ أَجْمَعُونَ .

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا. وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَوْطَةَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنَ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَٱلتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ. وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ «أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ» فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ: بَلْ فُؤَادُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ ٱلْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَٱلْعَيْبُ مِنْ بَابِ ٱلتَّأَدُّبِ وَحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ ٱلِٱبْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ ٱلشِّعْرُ. وَدَخَلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَٱسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ «مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا ٱلْمَاءُ يَنْسَكِبُ» وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ: وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ ... فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَاِنَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ اَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْاَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي اَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ اِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَاِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. اَلَا تَرَى اَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِاَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ اَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ « لَوْ خُلِّدَ اَحَدٌ لِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ » وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا . فَقَالَ ٱلْمَلِكُ : اِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ اَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ اَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ اَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْاَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَاِلَيْهِ اُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ . فَنَزَلَ فَاَمَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَاُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ . فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعِبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ : اَتَعْرِفُ اَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ . قَالَ : وَمَا تَقُولُ . قَالَ تَقُولُ :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ اَنَاخُوا حَوْلَنَا   يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا   وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ   اِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَاَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَاَمَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ اَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا : عِشْ اَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

يَا اَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ اَبَدًا ... دُمْ عَلَى ٱلْاَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
اَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا ... فَاِذَا اَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَاِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْاِمْكَانِ فَاِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِاَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي اَسَاءَ فِيهِ اَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ اَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ اَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اَوَّلُهَا :

اَرَبْعَ ٱلْبِلَى اِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ ... عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اَخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا اَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا اِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا اَنْفُسَنَا يَا اَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِاَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا اَشُكُّ اَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى ٱللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلِٱشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْاِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَاُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اَشْبَهَهُ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ . وَاَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْاَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ اَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا اَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجَ اِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا اَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَاَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِاَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَنحُوهَا إِلَّا أنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمكِنُ أنْ يَعِيشَهُ أحَدٌ مِنْ أهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأحسَنُ مَا ٱستَعمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ... بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أيضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ ألَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفَرَانِقِ عَلَى أنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى ألْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ

عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا

عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ

بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرْبَرَا

إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا

مَشَى ٱلْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أنَّهَا لِلْمَلِكِ ۰ وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أمِيرًا:

جاءت به معتجرًا ببردهِ سفواء تردي بنسيجٍ وحدهِ
تقدح قيسٌ كلّها بزندهِ

الّا انّ منهم من خالف هذا كلّهُ فوصف انّهُ قصد الممدوح راجلًا اما اخبارًا بالصدق واما تعاطي صعلكةٍ . قال ابو نواسٍ للفضل بن يحيى :

اليك ابا العبّاس من بين من مشى
عليها امتطينا الحضرميَّ الملسَّنا
قلائص لم تعرف حنينًا على طلًا
ولم تدرِ ما قرع الفنيق ولا الهنا

فذكر انّ قلائصهم التي امتطوا اليهِ مشدودةٌ بالنعال واخرجهُ كما ترى مخرج اللغز واتّبعهُ ابو الطيّب فقال :

لا ناقتي تحمل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان اجهدها
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

وقال كرّةً اخرى في مثل ذلك يتشكّى :

ومهمهٍ جبتهُ على قدمي تعجز عنهُ العرامس الذُّلُلُ

ولو شاء قائلٌ ان يقول فانّ ابا نواسٍ لم يرد ما ذهب اليهِ ابو الطيّب لكن اراد انّهُ معهُ في بلدٍ واحدٍ قصدهُ في حاجتهِ محتذيًا نعليهِ لكان اظهر وجهًا ما لم يكن الحضرميُّ من الجلود مخصوصًا بهِ المسافر دون الحاضر . وظاهر الكلام انّ مقصد الشاعرين واحدٌ . وقد ذكر ابو الطيّب الخيل في كثيرٍ من شعرهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنِي أَعَزَّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِٱقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءُ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ:

اَعِرْ شِعْرَكَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا

دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا

فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصَفَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْاِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ اَبُو تَمَّامٍ «لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ ٱلْفُؤَادَا» وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلِٱبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلِٱبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلِٱبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلِٱبْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَاهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا ٱبْتِدَاءً جَيِّدًا بِٱبْتِدَاءٍ لَاَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيهِ جوزًا بَيّنًا لَا يُقبَلُ مِنهُ وَلَا يُسَلَّمْ إِلَيهِ . وَكَانَ أَبو تَمّامٍ فخمَ ٱلإِبتِدَاءِ لَهُ رَوعَةٌ وَعَلَيهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ :

ٱلحَقُّ أَبلَجُ وَٱلسُّيوفُ عَوارِ فَحَذارِ مِنْ أَسَدِ ٱلعَرِينِ حَذارِ

وَقَوْلِهِ أَيضًا :

ٱلسَّيفُ أَصدَقُ إِنبَاءً مِنَ ٱلكُتُبِ

فِي حَدِّهِ ٱلحَدُّ بَيْنَ ٱلجِدِّ وَٱللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبعُ لَوْ رَبعُوا عَلَى ٱبنِ هُمُومِ » وَٱلغَالِبُ تَحتَ ٱللَّفظِ وَجَهارَةُ ٱلإِبتِدَاءِ

وَكَانَ أَبو ٱلقَاسِمِ ٱلحَسَنُ بنُ بِشرٍ ٱلآمِدِيُّ يُفضِّلُ ٱبتِدَاآتِ ٱلبُحتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ ٱلَّذي وَضَعَ كِتَابَ ٱلمُوازَنَةِ وَٱلتَّرجِيحِ بَينَ ٱلطَّائيَّينِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِٱلبُحتُرِيِّ أَعظَمَ تَنويهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ٱبتِدَاآتِهِ قَولُهُ :

عارَضْنَا أُصُلًا فَقُلْنَا ٱلرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ ٱلأُقحُوَانُ ٱلأَشنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَينَيكَ أَنِّي لَا أَسلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِندَهُمْ عِلمًا بِشَجوِي وَأَدمُعِي » فَأَمَّا ٱلخُرُوجُ فَهُوَ عِندَهُمْ شَبِيهٌ بِٱلإِستِطرَادِ وَلَيسَ بِهِ لِأَنَّ ٱلخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدحٍ أَوْ غَيرِهِ بِلُطفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجتَ إِلَيهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ ٱلبُحتُرِيِّ :

سُقِيَتْ رُبَاكَ بِكُلِّ غَيثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبلِهِ حَقًّا لَهَا مَعلُومَا

وَلَوَ أَنَّنِي أُعطِيتُ فِيهِنَّ ٱلمُنَى لَسَقَيتُهُنَّ بِكَفِّ إِبرٰهِيمَا

وأكثرُ النَّاس استعمالًا لهذا الفنّ أبو الطَّيِّب فإنَّهُ ما يكادُ يَشِذُّ عنهُ حتَّى رُبَّما قَبُحَ سُقُوطُهُ فيهِ نحوَ قولِهِ:

هَا فَانظُري أوْ فظُنّي بي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لم يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَألَا

عَلَّ الأميرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
إلَى الَّتي تَرَكَتْني في الهَوَى مَثَلَا

فقد تمنّى أن يكونَ الأميرُ لهُ قوَّادًا وليسَ هذا مِن قولِ أبي نُوَاسٍ:

سأشكو إلى الفضلِ بنِ يحيَى بنِ خالدٍ   هوانا لعلَّ الفضلَ يجمعُ بيننا

في شيءٍ لأنَّ أبا نُوَاسٍ قالَ: يجمعُ بيننا ثمَّ أتبعَ ذلكَ ذِكْرَ الماءِ والسَّحابةِ فقالَ:

أميرٌ رأيتُ المالَ في نَقَمَاتِهِ   ذليلًا مَهِينَ النفسِ بالضَّيمِ مُوقِنَا

وكأنَّهُ أشارَ إلى أنَّ جمعَهُ بينَهُما بالمالِ خاصَّةً يَفْضُلُ عليهِ ويُجزِلُ عطيَّتَهُ فيتزوَّجُها أو يتسرَّاها. وأبو الطَّيِّبِ قالَ لِيَشْفَعَ والشَّفاعةُ رغبةٌ وسؤالٌ. ثمَّ أتبعَ بيتَهُ بما هوَ مقوٍّ لِمعناهُ في القِيادةِ فقالَ:

أيقنتُ أنَّ سعيدًا طالبٌ بدمي   لمَّا بَصُرْتُ بهِ بالرُّمحِ مُعتقِلَا

فدلَّ على أنَّهُ يشفعُ فإنْ أُجيبَ إلى مُساعدةِ أبي الطَّيِّبِ فذاكَ وإلَّا رجعَ إلى القهرِ والَّذي يُشاكِلُ قولَ أبي نُوَاسٍ قولُهُ:

أُحِبُّ الَّذي في البدرِ منهُ مَشَابِهٌ
وأشكو إلى مَنْ لا يُصابُ لهُ شَكْلُ

فَلَفظَةُ ٱلشَّكوَى تُحمَلُ عَنهُ كَمَا حُمِلَت عَن ابي نُواسٍ

وَاولَى ٱلشِّعرِ بِانْ يُسَمَّى تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَن مَعنًى اِلَى مَعنًى ثُمَّ عَادَ اِلَى ٱلاوَّلِ وَاخَذَ فِي غَيرِهِ ثُمَّ رَجعَ اِلَى مَا كَانَ فِيهِ كَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبيَانِيِّ آخِرَ نَسِيبِ قَصِيدَةٍ ٱعتَذَرَ بِهَا اِلَى ٱلنُّعمَانِ :

فَكَفكَفتُ مِنِّي عَبرَةً فَرَدَدتُهَا
عَلَى ٱلنَّحرِ مِنهَا مُستَهِلٌّ وَدَامِعُ
عَلَى حِينَ عَاتَبتُ ٱلمَشِيبَ عَلَى ٱلصِّبَى
وَقُلتُ أَلَمَّا اَصحُ وَٱلشَّيبُ وَازِعُ

ثُمَّ تَخَلَّصَ اِلَى ٱلاعتِذَار فَقَالَ :

وَلٰكِنَّ هَمًّا دُونَ ذٰلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ ٱلشَّغَافِ تَبتَغِيهِ ٱلاَصَابِعُ
وَعِيدُ اَبِي قَابُوسَ فِي غَيرِ كُنهِهِ اَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَٱلضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِندَ مَا سَمِعَ مِنهُ ذٰلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَاَنِّي سَاوَرَتنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ ٱلرُّقشِ فِي اَنيَابِهَا ٱلسَّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ مِن لَيلِ ٱلتَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَليِ ٱلنِّسَاءِ فِي يَدَيهِ قَعَاقِعُ

فَوَصَفَ ٱلحَيَّةَ وَٱلسَّلِيمَ ٱلَّذِي شَبَّهَ نَفسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ مِنَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

اَتَانِي اَبَيتَ ٱللَّعنَ اَنَّكَ لُمتَنِي وَتِلكَ ٱلَّتِي تَستَكُّ مِنهَا ٱلمَسَامِعُ

ثُمَّ اَطَّرَدَ لَهُ ٱلقَولُ مَا شَاءَ مِن تَخَلُّصٍ اِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى ٱنقَضَتِ ٱلقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اَشَرتُ اِلَيهِ غَيرُ خَافٍ اِن شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى. وَقَد

يَقعُ مِنْ هٰـذَا ٱلنَّوعِ شَيْءٌ يَعتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلتَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلتَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ ... مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰـذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءَ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى ... لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ ... مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وربَّما قالوا بعد صِفةِ النَّاقةِ والمَفازةِ إلى فُلانٍ قصدتُ وحتَّى نزلتُ بفِناءِ فُلانٍ وما شاكلَ ذلكَ . وامَّا الانتهاء فهو قاعدةُ القَصيدةِ وآخِرُ ما يبقى منها في الاسماعِ وسبيلُهُ ان يكونَ مُحكماً لا يُمكِنُ الزِّيادةُ عليهِ ولا يأتي بعدهُ احسنُ منهُ. وإذا كانَ اوَّلُ الشِّعرِ مِفتاحاً لهُ وجبَ انْ يكونَ آخِرُهُ قُفلاً عليهِ . وقد اربى ابو الطَّيِّبِ على كلِّ شاعِرٍ في جُودةِ هذهِ الأبوابِ الثَّلاثةِ إلَّا انَّهُ رُبَّما عقَّدَ اوائلَ الأشعارِ ثقةً بنفسِهِ وإغراباً على النَّاسِ كقولِهِ اوَّلَ قَصيدةٍ :

وَفاؤُكُما كالرَّبعِ اشجاهُ طاسِمُهْ ... بِأنْ تُسعِدا والدَّمعُ اشفاهُ ساجِمُهْ

فإنَّ هذا يحتاجُ الاصمعيُّ إلى انْ يُفسِّرَ معناهُ. ويقعُ لهُ في الخُروجِ ما كانَ تركُهُ اولى بهِ واشعرَ لهُ وإنَّما ادخلَهُ فيهِ حُبُّ الإغرابِ في بابِ التَّوليدِ حتَّى جاءَ بالغثِّ البارِدِ والتَّشنيعِ المُتكلَّفِ نحوَ قولِهِ:

أُحِبُّكَ او يقولوا جرَّ نَملٌ ... ثَبيرًا وابنُ إبرهيمَ رَيعا

فهذا مِنَ البَشاعةِ ومِنَ الشَّناعةِ بحيثُ لا يخفى على احدٍ. وما أظنُّهُ سرقَ هذا المعنى الشَّريفَ إلَّا مِنْ كِذبةٍ كانَ اوردَها ابو العنبسِ الصَّيمريُّ على لِسانِ رجلٍ فزعمَ انَّهُ قالَ: رأيتُ رجلاً نامَ فجرَّهُ النَّملُ ثلاثةَ فراسخَ . وقد جعلَ ابو الطَّيِّبِ مكانَ الرَّجلِ جبلاً وإنْ علِمنا الإغرابَ في مُرادِهِ ولفظِهِ. وقالَ ايضاً :

اعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كِتابُ

وَبَحْرُ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ



فهرس

المقالات

